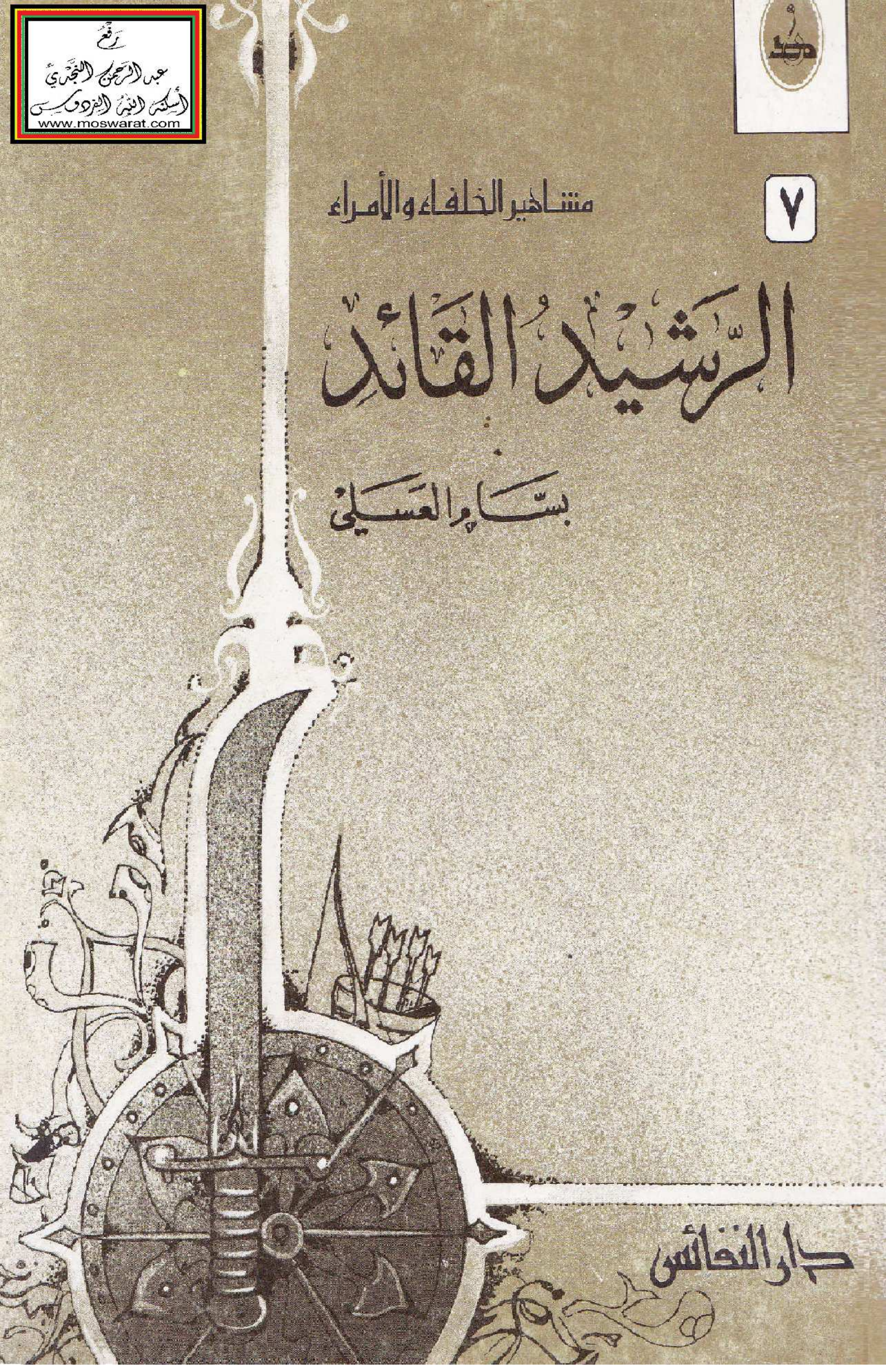
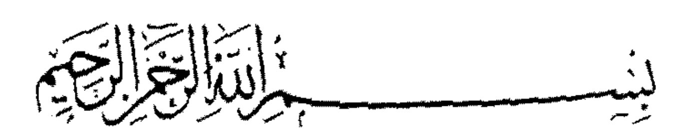

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
٧
مشاهير الخلفاء والأمراء
الرشيد القائد
بسام العسلي
دار النفائس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الرشيد القائد



مشاهير الخلفاء والأمراء

الرشيد القائد

بسام العسلي

دار النفائس

© دار النفائس



ص . ب ٦٣٤٧/ ١١ـ بيروت ـ هاتف ٨١٠١٩٤ ـ برقياً دانفايسكو
شارع فردان ـ بناية الصباح وصفي الدين ـ الطابق الثالث

الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

الطبعة الثانية : ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

دعـــاء الرشيـــد

حج الرشيد مرة ، فدخل الكعبـة ، فرآه بعض الحجبـة وهو واقف على أصابعه يقول : « يا من يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمير الصامتين ، فإن لكل مسألة منك رداً حاضراً ، وجواباً عتيداً ، ولكل صامت منك علم محيط ناطق بمـواعيدك الصـادقة وأيـاديك الفاضلة ، ورحمتك الواسعة ، صل على محمد وعلى آل محمد ، واغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، يا من لا تضره الـذنوب ، ولا تخفى عليه الغيوب ، ولا تنقصه مغفرة الخطايا ، يا من كبس الأرض على الماء ، وسد الهواء بالسماء ، واختار لنفسه أحسن الأسماء ، صل على محمد وعلى آل محمد ، وخِرْ لي في جميع أموري ، يا من خشعت له الأصوات بأنواع اللغات ، يسألـونه الحـاجات . إن من حاجتي إليك أن تغفر لي ذنوبي إذا توفيتني ، وصيرت في لحدي ، وتفرق عني أهلي وولدي . اللهم لك الحمد حمداً يفضل كل حمد ، كفضلك على جميع الخلق . اللهم صـل على محمـد وعلى آل محمد ، صلاة تكون له رضىً ، وصل عليه صلاة تكون له ذخـراً ، واجزه عنا الجـزاء الأوفى . اللهم أحينا سعـداء ، وتوفنـا شهداء ، واجعلنا سعداء مرزوقين ، ولا تجعلنا أشقياء مرجومين »[1].

(١) الكامل في التاريخ ٥/١٣٣ وتاريخ الطبري ٨/٣٥٥ .

مما قيل عن الرشيد

« كان الرشيد يصلي كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا ، إلا من مرض . وكان يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . فإذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة ، والكسوة الطاهرة ـ الباهرة ـ وكان يطلب العمل بآثار المنصور ، إلا في بذل المال ؛ فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال . وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ، ولا يؤخر ذلك . وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين » .

* * *

«كان مع الرشيد ابن أبي مريم المديني ، وكان مضحاكاً فكهاً ، يعرف أخبار أهل

الحجاز ، وألقاب الأشراف ومكايد المجان ، فكان الرشيد لا يصبر عنه ، وأسكنه في قصره . فجاء ذات ليلة وهو نائم ، فقام الرشيد إلى صلاة الفجر ، فكشف اللحاف عنه ، وقال : كيف أصبحت ؟ فأجاب ابن أبي مريم : ما أصبحت بعد ، إذهب إلى عملك . فقال له الرشيد : قم إلى الصلاة ! فأجاب ابن أبي مريم : هذا وقت صلاة أبي الجارود ، وأنا من أصحاب أبي يوسف . فمضى الرشيد يصلي ، وقام ابن أبي مريم وأتى الرشيد ، فرآه يقرأ في الصلاة : ﴿ وَمَا لِيَّ لا أَعْبد الذي فَطَرني ﴾ فقال : ما أدري والله ، فما تمالك الرشيد أن ضحك ، ثم قال وهو مغضب : في الصلاة أيضاً ؟ قال : ما صنعت ؟ فقال الرشيد : « قطعتَ عليَّ صلاتي » . فقال ابن أبي مريم : « والله ما فعلت ! إنما سمعت منك كلاماً غمني حين قلت : « وما ليَّ لا أعبدُ الذي فطرني ؟» فقلت لك : لا أدري ؟ فعاد الرشيد الضحكة ، ثم قال له : « إياك والقرآنَ والدين ، ولك ما شئت بعدهما » .

* * *

« استعمل يحيى بن خالد رجلاً على بعض أعمال الخراج ، فدخل على الرشيد يودعه ، وعنده يحيى وجعفر ، فقال لهما الرشيد : أوصياه ، فقال يحيى : « وَقِّر واعمر » . وقال جعفر : « أنصف وانتصف » . فقال الرشيد : « اعدل وأحسن »[1] .

---

(١) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ٥/ ١٣١ - ١٣٣ والطبري ٨/ ٣٤٩ .

مما قاله الشعراء في الرشيد

قال داود بن رزين في الرشيد مادحاً :

بِهارونَ لاح النُّور في كل بلدة
وقام به في عدل سيرتهِ النَّهْجُ
إمام بذات الله أصبح شغله
وأكثر ما يُعنى به الغزو والحج
تضيق عيون الناس عن نور وجهِهِ
إذا ما بدا للناس مَنْظَرُهُ البلجُ

* * *

وقال عبد الملك بن صالح :

حُبُّ الخليفة حُبٌّ لا يدين به
مَنْ كان للّه عاص يعمل الفتنا
الله قلد هاروناً سياستنا
لَمَّا اصطفاه فأحيا الدين والسننا

وقلد الأرض هارونٌ لرأفته
بنا أميناً ومأموناً ومُؤتمنا

* * *

وقال الحسن بن هانيء :

تبارك من ساس الأمور بعلمه
وفضل هاروناً على الخلفاء
نزالُ بخير ما انطوينا على التقى
وما ساس دنيانا أبو الأمناء[1]

* * *

وقال أبو الشيص يرثي هارون الرشيد :

غربت في الشرق شمس
فلها عينان تدمع
ما رأينا قط شمساً
غربت من حيث تطلع

* * *

وقال أبو نواس الحسن بن هانيء :

جرت جوارٍ بالسعد والنحس
فنحن في مأتم وفي عرس

---

(١) يقصد بالأمناء (الأمين والمأمون والمؤتمن) القاب محمد وعبد الله والقاسم ابناء الرشيد (الطبري ٨/٢٣٤ و ٢٧٦ و ٣١٦ و ٣٦٤ .

القلب يبكي والسن ضاحكة
فنحن في وحشةٍ وفي أنس
يضحكنا القائم الأمين ويبـ
ـكينا وفاة الإمام بالامس
بدران : بدر أضحى ببغداد بالـ
ـخلد ، وبدر بطوس في رمس

* * *

المقدمة

هذا خليفة الدنيا ، أمير المؤمنين ، اقترن اسمه بما وصل إليه العرب المسلمون خاصة ، والمسلمون عامة ، من العز والسؤدد ، وما بلغته دولتهم من القوة والاقتدار ، وما وصلت إليه من الاتساع .

إنه هرون الرشيد ، وُلِّيَ الخلافة وهو شاب له من العمر إثني وعشرين عاماً ، وحكم ثلاثاً وعشرين عاماً . وجاءت خلافته ، وقد استقرت الخلافة العباسية ، ورست قواعدها على أسس ثابتة متينة ، ولم يعد يطمع بها طامع ، أو ينال منها حاقد ، غير أنها لم تكن خالية من المتاعب والهموم ، فكثيراً ما تكون المحافظة على الشيء أصعب من الحصول عليه . وهكذا كان أمر الرشيد الذي قضى حياته في إدارة الدولة ، وزيادة قدرتها مادياً ومعنوياً ، والقضاء على أصحاب الفتن والمطامع ، فازدادات الدولة قوة على قوتها ، واكتسبت منعة على منعتها .

عجيب أمر هذه الدول الإسلامية ، وغريب أمر ذلك التشابه فيما بينها ، فما أشبه مؤسسي الدول : معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وصقر

قريش ـ عبد الرحمن الداخل ـ ويوسف بن تاشفين أمير المرابطين وعبد المؤمن أمير الموحدين وصلاح الدين الأيوبي أمير الأيوبيين ونهاية بعثمان وأورخان مؤسسي الدولة العثمانية. وكذلك فاذا كان لبني أمية الوليد وهشام إبني عبد الملك ، فقد كان للعباسيين هرون الرشيد وأخوه المعتصم وكان لبني عثمان السلطان سليم والسلطان سليمان القانوني . .

إنهم جميعاً من طراز واحد ، ومن نموذج متشابه ، على الرغم من اختلاف المشارب وتباعد الأزمنة واختلاف الظروف المكانية وتباينها ، فماذا يعني ذلك ؟ .

إنه يعني ثبات مدرسة الإسلام ، وقدرتها على التعامل مع كل الظروف الدنيوية بنهج ثابت وأسس محددة وواضحة تستند إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وهذا لا يعني الجمود أو التصلب أو التيبس ، وثمة اختلاف شاسع وتباين واضح بين الثبات على المبدأ ، والأخذ بالحالات المستجدة مما تفرضه الطبيعة المتغيرة للحياة الدنيا على الأرض . إنه يعني الإجتهاد في حدود الشرع لسياسة الناس وإدارة الملك .

عاش الرشيد حياته إنساناً مسلماً مؤمناً ، ومارس إدارته للدولة سياسياً على درجة عالية من الكفاءة ، ومجاهداً جراراً للجيوش ، قائداً للحرب ، يعرف أساليبها وفنونها ، وبقي طابع الانسان المسلم هو المهيمن على إدارة السلم والحرب .

لقد تميزت قيادة الرشيد ـ في إدارة الدولة وإدارة الحرب ـ بظاهرة مميزة : التمهل في اتخاذ القرار ، واتخاذ كافة تدابير الحيطة

الضرورية لنجاح التنفيذ ، والسرعة المذهلة في إنجاز العمل وتنفيذ القرار .

ولقد ظهرذلك واضحاً في عدد من الأعمال مثل فتح هرقلة ، والحرب ضد نقفور ، ونكبة البرامكة ، والقضاء على الفتن والثورات .

والرشيد في الحالات كلها ، جواد يسابق الريح في كرمه ، وشديد البأس ، إذا أعطى أغنى وإذا حارب أفنى .

إنه رجل الدولة من الطراز الأول ، لا يهدأ ولا يستكين ، غير أنه لا يتعجل الأمور ، وهدفه دائماً إحقاق الحق ، وتأمين العدل ، وإشاعة الأمن ، وإقامة حدود الله ، فقد يتجاوز عن الأخطاء والإساءات إذا لم يكن فيها انتهاك لحدود الله ، وإذا لم يكن فيها عدوان على سلطان الحكم .

ويصبح من الطبيعي جداً فهم التناقض في إدارة الرشيد لأمور السلم والحرب ، الرحمة المتناهية والقسوة المتطرفة ، فالرشيد يذوب رقة عندما يذكر اسم الله ، ويبكي بحرقة عندما تأتيه النصيحة على لسان ناسك حقيقي ومؤمن صادق ومسلم نقي ، غير أنه ينقلب إلى رجل لا يهتز له جفن وهو يشهد تقطيع جثة زنديق انتهك حدود الله ، وهل هناك ما هو أشد قسوة من موقف الرشيد وهو على فراش الموت ، وقد حمل اليه الثائر خامل بن الليث ـ شقيق الثائر رافع بن الليث ـ فقال له : « والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة . لقلت : اقتلوه » . وأمر بتقطيعه إلى أشلاء ممزقة .

هكذا كان الرشيد ، يرضى لله ، ويغضب لله ، وليس هناك مهادنة في حدود الله ، وليس هناك رفق أو لين في حدود الله .

لقد حُمِّلت سيرة الرشيد ، عبر التاريخ ، بأحمال ثقيلة من التفسيرات المتناقضة لسلوكه وممارسته ، وأعطيت ألواناً متنافرة ، وهي براء من كثير مما نسب إليها ومما ألحق بها ومما حمل عليها .

لقد كانت حياة الرشيد مثيرة ، حافلة بجلائل الأعمال ، فليس من الغريب أن تختلف وجهات النظر من مواقفه وممارساته في حياته وبعد مماته ، غير أن التدقيق في سيرة الرشيد يظهر أنها لم تكن إلا نسيجاً متلاحماً ومتناسقاً ، سداها تقى الله وخشيته ولحمتها العمل في طاعتة ، وهذا في حد ذاته كافياً لدحض ما علق بسيرة الرشيد من المقولات أو المواقف التي لا تستقيم أبداً مع سيرة الرشيد .

وبعد ! فليست القضية هي قضية تبرئة الرشيد ، فأمره إلى الله في أعماله ومنجزاته ، ولا يضير الرشيد في قليل أو كثير أن ينسب إليه ما هو براء منه ، ولكن القضية هي قضية التعلم من تجربة التاريخ ، وقضية البحث عن المعرفة لتلك الحقبة الزمنية التي كانت يقيناً من أزهى ما عرفته عصور الدنيا وتاريخ الاسلام والمسلمين .

ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة ، الإشارة إلى ما قيل من أن بيت مال المسلمين قد ضم يوم وفاة الرشيد مبلغ تسعمائة ألف ألف ونيف ، هذا مع ما عرف عن الرشيد من شدة إتلافه للمال على المحتاجين والصدقات وأعمال الخير .

وتبقى سيرة الرشيد أكثر اتساعاً من مقدماتها ، وأكثر غنى من مجرد التعريف بها .

بسام العسلي

وجيز الأحداث
في حياة هرون الرشيد

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
١٤٨	٧٦٥	ولادة هرون الرشيد
١٥٩	٧٧٥	وفاة المنصور وخلافة المهدي .
١٦٣	٧٧٩	تكليف الرشيد بولاية أذربيجان وأرمينية والمغرب كله .
١٦٥	٧٨١	تكليف الرشيد بغزو القسطنطينية .
١٦٩	٧٨٥	وفاة محمد المهدي وخلافة موسى الهادي .
١٧٠	٧٨٦	وفاة الهادي وخلافة الرشيد .
١٨١	٧٩٧	قيام الرشيد بغزو بلاد الروم وفتح حصن الصفصاف .
١٨٧	٨٠٢	نكبة البرامكة .
١٨٩	٨٠٤	فداء المسلمين الأسرى في بلاد الروم .
١٩٠	٨٠٥	قيام الرشيد بغزو بلاد الروم وفتح هرقلة .
١٩٣	٨٠٨	وفاة الرشيد .

الفَصْــل الأول

١ ـ قصة الرشيد والخلافة .
٢ ـ الرشيد وإدارة الحرب .
٣ ـ غزوة الصفصاف وفتح هرقلة .
٤ ـ الرشيد ومراكز القوى ـ محمد بن سليمان
٥ ـ إخضاع يحيى بن عبد الله ـ بالدليم ـ .
٦ ـ ولاية عمر بن مهران مصر .
٧ ـ الفتنة بدمشق .
٨ ـ الفتنة بالجزيرة الشامية .
٩ ـ الفتنة في أفريقية .
١٠ ـ البرامكة وسيطرتهم على الدولة .
١١ ـ الرشيد ينكب البرامكة .
١٢ ـ ابراهيم بن عثمان بن نهيك على درب البرامكة .
١٣ ـ غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح .
١٤ ـ بيعة الرشيد لأبنائه بولاية العهد .
١٥ ـ الصفحة الاخيرة في حياة الرشيد .

١ ـ قصة الرشيد والخلافة

أوصى المهدي بالخلافة من بعده لابنيه : موسى الهادي وهرون الرشيد ، ولم يكن المهدي يجهل أن لا حكم إلا لله ، وأن الحكم لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، مالك الملك ، غير أنها العادة جرى عليها ملوك بني أمية ، وسار بنو العباس على نهجهم وسيرتهم ، إتقاء للفتنة ، وطلباً للطاعة والجماعة ، وتجنباً للخلاف والفرقة .

وتولى موسى الهادي خلافة المؤمنين ، تنفيذاً للعهد ، وإنجازاً لموعود ربه ، وتجاهل أن الحكم لله ، ولا حكم إلا لله ، فأراد أن ينزع من الخلافة أخاه هرون الرشيد حتى يوليها ابنه جعفر . وكما هي العادة في مثل هذه المواقف ، فإن موسى الهادي لم يعدم من يدعم رأيه ، ويؤيد رغبته ، ويستصوب نهجه ومسلكه . وأقبل القواد ورجال الدولة ، فأعلنوا خلع بيعتهم للرشيد ، وبايعوا لجعفر بن موسى ، ودسوا إلى الشيعة ، فتكلموا في أمره ، وأظهروا استهانتهم به ، وتنقصوه في مجلس الجماعة . وأمر الهادي بحرمان أخيه من مظاهر الملك ، وتجريده من الحرس ، فاجتنب الناس الرشيد حتى لم يعد

أحد يجد الجرأة في أن يقربه أو يسلم عليه .

لقد قلبت الدنيا ظهر المجن للرشيد ، ولكن ، كما هي العادة أيضاً ، فإن الرشيد لم يعدم بدوره من يعطف على قضيته ، ولم يفتقر إلى من يقف إلى جانبه ، ويخفف عنه وحشته ، ويشد من أزره ؛ فكانت الخيزران أم الرشيد وكان يحيى بن خالد ـ البرمكي ـ في طليعة أنصار الرشيد . وعلم الهادي بالأمر ، وقيل له : « إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يفسده يحيى بن خالد ، فابعث إلى يحيى ، وتهدده بالقتل ، وارمه بالكفر » .

بعث الهادي إلى يحيى بن خالد ـ ليلاً ـ . وظن يحيى أنه الهلاك ، وأيس من نفسه ، وودع أهله ، وتحنط ، وجدد ثيابه ، ولم يشك أن الهادي يروم قتله . فلما أدخل عليه ، قال له الهادي : « يا يحيى ! ما لي وما لك؟» فرد يحيى : « أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته ؟ » قال الهادي : « فلِمَ تدخل بيني وبين أخي تفسده علي؟» ورد يحيى : « يا أمير المؤمنين ! من أنا حتى أدخل بينكما ؟ إنما صيرني المهدي معه ، وأمرني بالقيام بأمره ، فقمت بما أمرني به ، ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك » فقال الهادي : «فما الذي صنع هرون؟» ورد يحيى : «ما صنع شيئاً ، ولا ذلك فيه ولا عنده » . وسكن غضب الهادي ، وقرر اتباع أسلوب يبعد به يحيى عن الرشيد ، فقربه ونادمه وأمّنه ، وأعطاه خاتم ياقوت أحمر كان في يده . وما زال يدنيه حتى أجلسه بين يديه ، وقال له : « إني كنت أظلمك وأكفرك ، فاجعلني في حل » وتعجب الناس من إكرامه إياه ، وقبل يحيى يد الهادي ، وشكر له ، فقال له الهادي : « من الذي يقول فيك يا يحيى :

لــو يَـمَسُّ الـبـخـيــل راحــة يـحـيــى
لــســخــت نَـفْــسُــهُ بـبــذل الـنـوالِ »

فرد يحيى على الفور : تلك راحتك يا أمير المؤمنين لا راحة عبدك » .

وأخيراً ، تكلم الهادي في خلع الرشيد ، فما كان من يحيى إلا أن قال : « **يا أميـر المؤمنين ! إنك إن حملت النـاس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده ، كان ذلك أوكد لبيعته** » . فقال : صدقت ونصحت ، ولي في هذا تدبير . ويظهر أن الهادي لم يقتنع بما قاله يحيى ، ولو أنه تظاهر في قبوله ، وأمر بحبسه فسجن ، فرفع يحيى رقعة إلى الهادي جاء فيها : « إن عندي نصيحة ! » فدعا به . فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين ! أخلني » ، فأخلاه ، فقال يحيى : « **يا أمير المؤمنين ! أرأيت إن كان الأمر ـ أسأل الله ألا نبلغه ، وأن يقدمنا قبله ـ أتـظن أن الناس يسلمـون الخلافـة لجعفـر ، وهـو لم يبلغ الحُلْم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم** » . فرد الهادي : « **والله ما أظن ذلك ؟** » فاستأنف يحيى حديثه : « **يا أمير المؤمنين ! أفتأمن أن يسمو إليها أهلك وجلّهـم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟ لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ، أما كان ينبغي أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له ؟ إني أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر ، وبلغ الله به ، أتيته بالرشيد فخلع نفسـه ، وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده** » .

وعقد موسى الهادي مجلساً خاصاً ، وأجلس بنـو هاشم وكبار

القوم عن يمينه وعن يساره . وأدخل هرون الرشيد ؛ فَسَلم وقبل يدي أخيه ، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية . فأطرق موسى ينظر إليه ، وأدمن في ذلك، ثم التفت إليه. فقال: «**يا هرون ! كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا ؟ وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرط القتاد ، تؤمل الخلافة ؟** »[1] فبرك هرون على ركبتيه ، وقال : «يا موسى ! إنك إن تجبرت وُضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت خُيّلت - أو قتلت - وإني لأرجو أن يفضي الأمر إلي ، فأنصف من ظلمت ، وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادي ، وأزوجهم بناتي ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي » . فقال له موسى : « ذلك الظن بك يا أبا جعفر ، أدن مني » . فدنا منه ، فقبل يديه ، ثم ذهب يعود إلى مجلسه ، فقال له موسى : « لا ! والشيخ الجليل ! والملك النبيل - أعني أباك المنصور - لا جلست إلا معي » . وأجلسه في صدر المجلس معه ، ثم قال : « إحملوا إلى أخي ألف ألف دينار ، وإذا افتتح الخراج ، فاحملوا إليه النصف

---

(١) كان عمرو الرومي ممن يأنس بهم الرشيد ، ويرتاح إليهم ، فلما انصرف الرشيد ، لحق به عمرو الرومي وسأله : « يا سيدي ! ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين ؟» فأجابه الرشيد : « قال المهدي أنه رأى في نومه كأنه دفع إلى موسى قضيباً وإليَّ قضيباً . فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً . وأما قضيبي فاورق من أوله إلى آخره ، فدعا المهدي الحكم بن موسى الضمري - وكان يكنى أبا سفيان - فقال له : فسر هذه الرؤيا ! فقال: يملكان جميعاً. فأما موسى فتقل أيامه . وأما هرون فيبلغ مدى ما عاش خليفة . وتكون أيامه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر » ولم يلبث موسى إلا فترة يسيرة حتى اعتل ومات . وأفضت الخلافة إلى هرون ، فزوج حمدونة ابنته من جعفر بن موسى ، وزوج فاطمة من إسماعيل بن موسى ووفى بكل ما قال . وكان دهره أحسن الدهور . انظر تاريخ الطبري ٢٠٧ - ٢١٣ وابن الاثير ٥/ ٧٧ - ٧٩ .

منه ، واعرضوا عليه ما في الخزائن من مالنا ، وما أخذ من بيت أهل اللعنة ، فيأخذ جميع ما أراد » . وخرج الرشيد راضياً .

طابت نفس الرشيد بالخلع ، إذ وجد أن الخلع أهون عليه من الصدام بأخيه . فقال له يحيى : « لا تفعل ! » فقال الرشيد : « أليس يترك لي الهنيء والمريء ، فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي ! » وكان هرون يهيم وجداً بحب أم جعفر . فقال له يحيى : « وأين هذا من الخلافة ؟ ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع » ومنعه من الإجابة .

كانت الخيزران أم الهادي والرشيد تتابع الموقف ، وخشيت أن يبطش الهادي بأخيه الرشيد ، فبعثت عاتكة إلى يحيى ، فشقت جيبها بين يديه ، وهي تبكي إليه وتقول له : « تقول لك السيدة ـ الخيزران ـ الله الله في ابني لا تقتله ، ودعه يجيب أخاه إلى ما يسأله ويريده منه ، فبقاؤه أحب إليَّ من الدنيا بجمع ما فيها » فصاح بها يحيى وقال لها : « وما أنت وهذا ؟ إن يكن ما تقولين فإني وولدي وأهلي سنقتل قبله ، فإن اتهمت عليه ، فلست بمتهم على نفسي ولا عليهم » . ولما لم ير الهادي أن يحيى بن خالد قد رجع عما كان عليه لهارون ، على الرغم مما بذله له من إكرام وإقطاع وصلة ، بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه .

استمر الهادي في محاولاته لخلع الرشيد ، وحمله عليه جماعة من مواليه وقواده . واشتد غضبه منه ، وخاف يحيى على الرشيد ، فقال له : « استأذن أخاك الهادي في الخروج إلى الصيد ، فإذا خرجت ، فاستبعد ، ودافع الأيام » فرفع الرشيد رقعة يستأذن فيها ، فأذن له ، فمضى إلى قصر (بني مقاتل) ، فأقام به أربعين يوماً ،

حتى أنكر الهادي أمره ، وغمه احتباسه ، وجعل يكتب إليه ويستدعيه ، فتعلل عليه ، حتى تفاقم الأمر ، وأظهر شتمه ، وبسط مواليه وقواده ألسنتهم في الرشيد ، والرشيد بالباب يصله كل ما يقال عنه . وقرر الهادي اتخاذ الخطوة الحاسمة في البيعة لابنه ، فخرج إلى الحديثة بعد ما كتب إلى جميع عماله شرقاً وغرباً بالقدوم عليه ، غير أن المرض دهمه ، ولم يلبث اكثر من ثلاثة أيام حتى وافته المنية .

جاء الرسول إلى الخيزران ، فأخبرها بوفاة ابنها موسى الهادي ، فقالت : وما أصنع به ؟ ، فقالت لها وصيفتها خالصة : « قومي إلى ابنك أيتها الحرة ، فليس هذا وقت تعتب ولا تغضب » . فقالت : « أعطوني ماء أتوضأ للصلاة » ، **ثم قالت** : « **أما إنا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ، ويملك خليفة ، ويولد خليفة . فمات موسى وملك هارون وولد المأمون**» . ثم قالت الخيزران : « وما فعل الناس ؟ » قالت : يا سيدتي ، مات موسى ودفنوه ، قالت : « إن كان مات موسى ، فقد بقي هارون ، هاتي لي سويقاً » فجاءت بسويق ، فشربت وسقت ضيوفها ، ثم قالت : « هاتي لساداتي أربعمائة ألف دينار » ثم قالت : « ما فعل ابني هارون ؟ » قيل لها : « حلف ألا يصلي الظهر إلا ببغداد » . قالت : « هاتوا الرحائل ، فما جلوسي ها هنا ، وقد مضى ! ؟ » فلحقته ببغداد .

* * *

أما ما كان من أمر الرشيد ، فإنه كان نائماً عندما دخل عليه يحيى بن خالد ، فقال له وهو يوقظه : « قم يا أمير المؤمنين ! » فقال

له الرشيد : « **كم تروعني إعجاباً منك بخلافتي ! وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل ـ الهادي ـ فإن بلغه هذا ، فما تكون حالي ؟** » فرد عليه يحيى بقوله : «هذا الحراني وزير موسى، وهذا خاتمه». فقعد الرشيد في فراشه ، وأخذ في التحدث إلى يحيى عندما طلع عليه رسول آخر يبشره بقوله : « قد ولد لك غلام » قال الرشيد :«قد سميته عبد الله » ، ثم قال ليحيى : « أشر عليَّ » . فقال يحيى : « أشير عليك أن تقعد لحالك على أرمينية » فرد الرشيد بقوله : « **قد فعلت ، ولا والله لا صليت بعيساباذ إلا عليها** » **ولا صليت الظهر إلا ببغداد ، وإلا ورأس أبي عصمة** » . ونهض من فوره ، ولبس ثيابه . وخرج فصلى على أخيه ـ موسى الهادي ـ بعيساباذ ، ووقف عليه حتى دفن في بستانه بعيساباذ الكبرى ، ثم جاء بأبي عصمة فضرب عنقه ، وشد جُمته في رأس قناة ، ودخل بها بغداد . وكان سبب غضبه على أبي عصمة ، أن الرشيد كان قد مضى هو وجعفر بن موسى الهادي راكبين ، فبلغا إلى قنطرة من قناطر عيساباذ ، فالتفت أبو عصمة إلى هارون ، فقال له : « مكانك حتى يجوز ولي العهد » فقال هارون : « السمع والطاعة للأمير » ووقف حتى جاز جعفر ، وحملها في نفسه ، فلما جاءت اللحظة المناسبة ، فجّر غضبه ضد أبي عصمة وقتله .

مضى الرشيد في طريقه الى بغداد، فلما صار إلى كرسي الجسر، دعا بالغواصين ، فقال : « كان المهدي وهب لي خاتماً شراؤه مائة ألف دينار يسمى ـ الجبل ـ فدخلت على أخي وهو في يدي ، فلما انصرفت لحقني سليم الأسود على الكرسي فقال : يأمرك أمير المؤمنين أن تعطيني الخاتم ، فرميت به في هذا الموضع » فغاصوا ،

فأخرجوه ، فسر به غاية السرور .

عندما وصل الرشيد إلى بغداد ، كانت الأمور قد استقرت ، ذلك أن خزيمة بن خازم كان قد أسرع في تلك الليلة ، فأخذ جعفراً من فراشه ـ وكان خزيمة في خمسة آلاف من مواليه معهم السلاح ـ فقال له : « والله لأضربن عنقك أو تخلعها » فلما كان من الغد ، ركب الناس إلى باب جعفر ، فأتى به خزيمة ، فأقامه على باب الدار في العُلو ، والأبواب مغلقة ، فأقبل جعفر ، ينادي : « يا معشر المسلمين ! من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللته منها ، والخلافة لعمي هارون ، ولا حق لي فيها » .

وجاء الرشيد بيحيى بن خالد ، فقلده الوزارة ، وقال له : « قد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » ، ودفع إليه خاتمه[1] .

هكذا أصبح هارون الرشيد خليفة في الليلة التي كان موسى الهادي قد حددها موعداً للبيعة لابنه جعفر ، ولقتل الرشيد ويحيى بن خالد معاً ، باعتبار أنهما المعارضين الوحيدين لخلافة جعفر .

---

(١) وفي ذلك قال ابراهيم الموصلي (تاريخ الطبري ٢٣٣/٨) :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمةً فلما ولي هرون أشرق نورها
بيمن أمين الله هرون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

٢ ـ الرشيد وإدارة الحرب

بقيت الثغور منذ الأيام الأولى للفتح وحتى عهد الرشيد تابعة للجزيرة وقنسرين . فلما ولي الرشيد الخلافة ، كـان أول عمل لـه (سنة ١٧٠هـ) أن عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها حيزاً واحداً ، وأطلق عليها اسم (العواصم) . وتطلب ذلك بداهة دعم هذه العواصم حتى تستطيع القيام بأمر الدفاع عن نفسها . وكان من عادة الرشيد بعد ذلك أن يغزو عاماً ويحج عاماً ، وكان إذا لم يغز بنفسه ، كلف بقيادة الصائفة كبار أهل بيته وقادته . فغزا بالصائفة (سنة ١٧٠هـ) سليمان بن عبد الله البكائي ـ وقيل أن الـرشيد قـاد هذه الغزوة بنفسه ـ . وقام بقيادة الصـائفة (سـنة ١٧٢هـ) اسحاق بن سليمان بن علي ، فأثخن في بلاد الروم وغنم وسبى . وتولى عبد الملك بن صالح قيادة غزو الصائفة في سنة أربع وسبعين ومائة ، فبلغ في نكاية الـروم ما شـاء ، وأصابهم بـرد شديـد سقطت منـه أيدي الجند ، ثم تولى قيادة الصائفة في سنة سبع وسبعين ومائة القائد عبد الرزاق بن عبد الحميد الثعلبي . وجاء زفر بن عاصم فتـولى قيادة الصائفة في السنة التالية (١٧٨هـ) .

حدث في سنة ثلاث وثمانين ومائة أن حملت ابنة خاقان ملك الخزر إلى الفضل بن يحيى فماتت (ببردعة) ورجع من كان معها ، فأخبروا أباها أنها قتلت غيلة ، فتجهز لغزو بلاد الاسلام ، وخرج من باب الأبواب (باكو ـ حالياً) وسبى أكثر من مائة ألف فارس ، وفعلوا ما لم يسمع بمثله ، فولى الرشيد يزيد بن مزيد أمر أرمينية مضافة إلى أذربيجان ، وأمره بالنهوض إليهم ، وأنزل خزيمة بن خازم بنصيبين رداءاً لهم ـ حماية واحتياط ودعم ـ ودخل يزيد وخزيمة إلى أرمينية فأخرجا الخزر ، وأصلحا ما أفسده الغزاة ، وسدت الثلمة ، وتم الصلح مع الخزر .

جعل الرشيد ابنه القاسم قرباناً لله وولاه العواصم ، وأسند إليه قيادة الصائفة (سنة ١٨٧هـ) فخرج القاسم حتى أناخ على (قرة) فحاصرها وضيق عليها ، ووجه جيشاً بقيادة (ابن جعفر ابن الأشعث) فقام بمحاصرة حصن (سنان) حتى جهد أهله ، وفادى الروم بثلثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين ، على أن يرحل عنهم ، فأجابهم ، وتم بينهم الصلح ورحل عنهم .

تولى (ابراهيم بن جبريل) قيادة الصائفة (سنة ثمان وثمانين ومائة) فدخل من درب الصفصاف ، فخرج إليه نقفور ـ ملك الروم ـ وانهزم ، وقتل من عسكره نحو من أربعين ألفاً ، بينما كان القاسم بن الرشيد يعمل على حصار (أبق) . وفي السنة التالية (١٨٩هـ) كتب الرشيد وهو بالري كتباً بالأمان إلى (شروين أبي قارن) (وندا هرمز) جد مازيار مرزبان (خستان) صاحب الديلم ، وبعث بالكتب مع حسين الخادم إلى (طبرستان) . فقدم خستان ووندا هرمز فأكرمهما الرشيد وأحسن إليهما ، وضمن وندا هرمز وشروين صاحبي

طبرستان ، وذكرا كيف توجه الهادي لهما وحاصرهما .

استعمل الرشيد (حميد بن معيوب) على الأساطيل ممن بسواحل الشام ومصر إلى قبرص . فهاجم حميد قبرص ، وسبى من أهلها نحواً من سبعة عشر ألفاً ، وجاء بهم إلى الواقعة ، فبايعوا بها ، وبلغ فداء أسقف قبرص ألفي دينار . ثم سار الرشيد إلى حلوانة فنزل بها وحاصرها ، ثم رحل عنها ، وخلف عليها عقبة بن جعفر . ثم نقض أهل قبرص الصلح ، فغزاهم معيوب بن يحيى فأثخن فيهم وسباهم . ولما رجع الرشيد من غزاته ، خرجت الروم إلى عين زربة والكنيسة السوداء ، وأغاروا ورجعوا ، فاستنقذ أهل المصيصة ما حملوه من الغنائم .

كان الصراع على الثغور بمثابة حرب استنزاف مستمرة، وكان من طبيعة هذه الحرب ذات التطورات المباغتة ، وقوع أعداد كبيرة من الأسرى . وأشفق الرشيد على وضع الأسرى ، فنظم أول عملية فداء بين الروم والمسلمين (سنة ١٨١هـ) . وكان القاسم بن الرشيد هو المتولي له ،ففرح بذلك الناس ، ففودي بكل أسير في بلاد الروم . وكان الفداءباللامس على جانب البحر بينه وبين طرسوس ، وحضر ثلاثون ألفاً من المرتزقة عملية الفداء ، كما خرج للعملية متولي طرسوس (الخادم) وخلق كثير من أهل الثغور وغيرهم من العلماء والأعيان . وكان عدة الأسرى ثلاثة آلاف وسبعمائة ـ وقيل أكثر من ذلك ـ . ثم اعيدت عملية الفداء ثانية (سنة ١٩٢هـ) بين المسلمين والروم ، وكان القيم به (ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي) وكان عدة الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير .
فكانت عملية الفداء الأولى ثم الثانية هما أولى عمليات الفداء أيام

بني العباس. ونجم عن عملية الفداء أنه لم يبق مسلم أسير في بلاد الروم .

قام (يزيد بن مخلد الهبيري) بغزو بلاد الروم (سنة ١٩١هـ) ولم يكن معه أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، فأخذت الروم عليه الطريق ، وحصروه عند المضيق ، فقتلوه وخمسين رجلاً ، واستسلم الباقون . فاستعمل الرشيد لقيادة الصائفة قائده (هرثمة بن أعين) وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان . ورتب الرشيد قوة بدرب الحدث بقيادة (عبد الله بن مالك) . كما وجه قوة أخرى الى مرعش بقيادة (سعيد بن مسلم بن قتيبة) ، فأغارت الروم عليها ، فأصابوا من المسلمين ، وانصرفوا ، ولم يتحرك سعيد من موضعه . وبعث الرشيد قوة إلى طرسوس بقيادة (محمد بن يزيد بن مزيد) . وأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من رمضان ، وعاد إلى الرقة . وأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور ، وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم . وأمر هرثمة ببناء طرسوس وتمصيرها ، ففعل . وتولى ذلك فرخ الخادم بأمر الرشيد ، وسير إليها جنداً من أهل خراسان ثلاثة آلاف ، ثم أشخص إليهم ألفاً من أهل المصيصة ، وألفاً من أهل انطاكية ، وتم بناؤها سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبنى مسجدها[1] . فصارت طرسوس من أهم عواصم المسلمين ، وثغورهم منها ومن بقية العواصم ينطلقون لغزو بلاد الروم بالصوائف والشواتي ، وفيها وفي بقية العواصم تتمركز حاميات المسلمين لمجابهة هجمات الروم الغادرة .

---

(١) انظر تاريخ العلامة ابن خلدون ـ المجلد الثالث ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ١٩٦٦ (٤٧٦ ـ ٤٨٠) وانظر أحداث السنين المذكورة في تاريخ الطبري . والكامل في التاريخ لابن الأثير .

٣ ـ غزوة الصفصاف وفتح هرقلة

لقد عمل الرشيد على تحرير المسلمين من أسر الروم حتى لا يترك للمشركين سلطاناً على المسلمين[١] وحتى يبقى ارتباط المسلمين بدولتهم قوياً وثابتاً ، وحتى يحتفظ المسلمون بعزتهم وكرامتهم ، والعزة لله ولعبادة المؤمنين المسلمين الذين صدقوا الجهد والجهاد . وفي بيت مال المسلمين فضول من أموال المسلمين ، فلينفقها الرشيد ابتغاء مرضاة الله ، ومن أجل خير عباده . ولكن افتداء المسلمين وتحريرهم لم يكن بديلاً عن الحرب إذا ما تطلبت الظروف خوض الحرب ، وهذا ما حدث سنة إحدى وثمانين ومائة (١٨١هـ) عندما حاول ملك الروم قسطنطين بن ليون تحدي سلطان المسلمين ، فسار إليه الرشيد بنفسه ، وقاد جيشاً قوياً

---

(١) ابن الاثير ـ ١٢٢/٥ ـ وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة :

وفككت بك الأسرى التي شيدت لها
مجالس ما فيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها
وقالوا سجون المشركين قبورها

انتصر به على الروم ، وافتتح (حصن الصفصاف) عنوة ودمره مع حاميته . ثم وجه الرشيد مجموعة قتالية بقيادة عبد الملك بن صالح ، فأوغل في بلاد الروم حتى بلغ أنقرة ، وافتتح مطمورة[1] وعاد الرشيد ظافراً ، حتى إذا ما بلغ (الرقة) قرر أن تبدأ رسائله بجملة (**الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم**) .

كان من نتيجة انتصار الرشيد على الروم ، أن ثاروا على ملكهم قسطنطين ، وسملوا عينيه ، ونصبوا مكانه أمه (ريني - أو رينيه) ومنحوها لقب (اوغسطه) . غير أن هذه وجدت أنها أعجز من أن تتصدى للرشيد ، فأخذت الأمور باليسر واللين ، وقررت مصالحة الرشيد على جزية معلومة تؤديها له في كل سنة . وغضب الروم ، واتهموا ملكتهم بالضعف ، وثاروا ضدها وعزلوها ، ونصبوا مكانها ملكاً اسمه (نقفور). ويزعم الروم أن نقفور هذا هو من أولاد جفنة من غسان (الغساسنة) وأنه كان قبل الملك يلي ديوان الخراج . ثم ماتت (رينيه) بعد خمسة أشهر من خلع الروم اياها ، فلما ملك (نقفور) واستوثق من الأمر ، ودان له الروم بالطاعة ، كتب إلى الرشيد : (من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب . أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي ، أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها ، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك) .

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٢٦٨ . وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة أيضاً :

إن أمير المؤمنين المصطفى   قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

لما قرأ الرشيد الكتاب ، استفزه الغضب ، حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم ، واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه ، أو يتركه يستبد برأيه دونه ، حتى دعا الرشيد بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب :

« **بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام** »[1] .

وشخص الرشيد من يومه ، وسار حتى أناخ بباب هرقلة ، ففتح وغنم ، واصطفى وأفاد ، وخرب وحرق . فطلب نقفور الموادعة ، على خراج يؤديه في كل سنة ، فأجابه إلى ذلك . فلما رجع من غزوته وصار بالرقة ، نقض نقفور العهد ، وخان الميثاق . وكان البرد شديداً ، فيئس نقفور من رجعته إليه . وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه ، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام ، فاحتيل له بشاعر من المقربين (اسمه الحجاج ابن يوسف التيمي)[2] فأنشد قصيدة ، فلما فرغ من إنشاده قال الرشيد : « أَوَقد فعل نقفور ذلك » وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك ، فكر راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة ، وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم ، وكان جيش الرشيد يضم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، سوى الأتباع ، وسوى المطوعة ، وسوى من لا

---

(١) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ احداث سنة (١٨٧ هـ) وتاريخ الطبري احداث سنتي ١٨٧ و ١٩٠ هـ .

(٢) انظر قراءات ٢ و٣ ما قاله التيمي وأبو العتاهية في هذه الحرب .

ديوان له . وأنزل عبد الله بن مالك لحصار (ذي الكلاع) ووجه قوة من سبعين ألفاً بقيادة (داود بن عيسى بن موسى) بمهمة اجتياح بلاد الروم ، وتدمير كل ما تصادفه ، وافتتح (شراحيل بن معن بن زائدة) حصن الصقالبة ودبسة ، وافتتح (يزيد بن مخلد) الصفصاف وملقوبية . وأقام الرشيد على هرقلة ثلاثين يوماً ، حتى أمكن له فتحها ، فسبى أهلها ودمر حصونها . ثم سار الرشيد إلى (الطُّوانة) فعسكر بها ، ثم رحل عنها ، وخلف عليها (عقبة بن جعفر) وأمره ببناء منزل هناك . وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية ، عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ابنه (استبراق) دينارين . وعاد الرشيد بجيشه الظافر الى عاصمته (بغداد)[1] .

ما إن استقر الرشيد حتى وصلته رسالة من نقفور حملها إليه بطريقان من عظماء بطارقته ، بشأن طلب فتاة من السبي الذي حازه المسلمون في هرقلة ، وجاء في الرسالة :

« لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، من نقفور ملك الروم ، سلام عليكم ، أما بعد. أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك ، هينة يسيرة ، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة ، كنت قد خطبتها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي

---

(١) كان الرشيد قد اتخذ عند خروجه لهذه الحرب قلنسوة مكتوب عليها (غازٍ حاجٌ) فكان يلبسها ، وفي ذلك قال أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يُردهُ ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمِرٍّ ... وفي أرض البرية فَوْق كورِ
وما حاز الثغور سواك خلقٌ ... من المتخلفين على الأمور

فعلت . **والسلام عليك ورحمة الله وبركاته** » . واستهداه أيضاً طِيباً وسرادقاً . فأمر الرشيد بطلب الجارية ، فأحضرت وزُينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه . وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور ، وبعث إليه بما سأل من العطر ، وبعث إلينه من التمور والأخبصة والزبيب والترياق ، فسلم ذلك كله إليه رسول الرشيد . فأعطاه نقفور وَقْر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ، ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزيون ، واثني عشر بازياً ، وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين . وكان نقفور اشترط ألا يخرب (ذا الكلاع) ولا (صملة) ولا (حصن سنان) واشترط الرشيد عليه ألا يعمر (هرقلة) وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار .

تلك هي أبرز ملامح الأعمال القتالية (**للغازي الحاج الرشيد**) وتلك هي أوضح أساليبه في إدارة الحرب . إنها لا تحمل جديداً على فن الحرب الإسلامي إلا بقدر ما كان يتطلبه التطور . وقد يظهر لأول وهلة أن حروب الرشيد كانت تعتمد على البطش والقوة ، غير أن متابعة المواقف تبرز اهتمام الرشيد بعاملين أساسيين .

أولهما : الضرب بقوة إذا ما تطلب الموقف استخدام العنف والقوة بحيث يضطر العدو لتجنب الحرب ضد المسلمين ، والجنوح إلى السلم والمهادنة ، واللين والموادعة .

وثانيهما : **الاقتصاد قدر المستطاع في القوى** ، حرصاً من الرشيد على دماء المسلمين وأموالهم وأمنهم . وهذا ما يفسر حرص الرشيد على (افتداء المسلمين من الأسر) وهذا ما يفسر أيضاً إقدام

الرشيد على زج الجيوش الضخمة انتقاماً لانتهاك محرمات المسلمين ودمائهم .

انطلاقاً من الحقيقتين السابقتين اللتين سبق ذكرهما ، يمكن فهم سبب إقدام الرشيد على موادعة (نقفور) في المرة الأولى ، ثم مصالحته في المرة الثانية . فالهدف من الأعمال القتالية هو إخضاع الروم ، وإذلالهم ، وتركهم بعد ذلك يعيشون حياة التمزق الداخلي واستنزاف قدراتهم بصراعاتهم الداخلية . ولقد عرف الرشيد بحكم التجارب المتتالية أن إزالة دولة الروم من الوجود هو أمر يخرج عن حدود إمكاناته في تلك الحقبة التاريخية . ولهذا فقد اكتفى بإشغال الروم بأنفسهم ، وإضعافهم بصورة مستمرة ، وحرمانهم من حرية العمل العسكري، مما يوفر للعرب المسلمين بالتالي أفضل الظروف للعمل من داخل بلاد الروم ذاتها لنشر الاسلام وتعريف الروم بفضائل الدين الاسلامي . وهكذا امتزج اللين بالشدة ، في اطار استراتيجية بعيدة المدى تضع متطلبات السلم وبناء المجتمع الاسلامي في مقدمة الأهداف ، مما كان يدفع الرشيد باستمرار الى تحقيق التوازن بين (غاية السلم) وبين (هدف الحرب) . ولقد كانت حروب الرشيد الداخلية تسير على النهج ذاته ، مما يؤكد ثبات الفكر الاستراتيجي والوضوح في الرؤيا لدى الغازي الحاج هرون الرشيد .

٤ ـ الرشيد ومراكز القوى ـ محمد بن سليمان

كان محمد بن سليمان والياً على البصرة ، وكان من رجالات قريش وشجعانهم ، جمع له المنصور بين البصرة والكوفة ، وزوجه المهدي ابنته العباسة ، وكان دخله في كل يوم مائة ألف . وولي الرشيد ، وعرف ما يشكله محمد بن سليمان من قوة قد تتهدد سلطته ، فأخذه في اللين ، غير أنه لم يغفل عنه ، وشدد المراقبة عليه ، وأمر بالاحتفاظ بكتبه . ولما مضت ثلاثة أعوام على خلافة الرشيد ، توفي محمد بن سليمان ـ وكانت وفاته في يوم واحد مع وفاة الخيزران والدة الرشيد ـ فاستدعى الرشيد جعفر بن سليمان ، ولم يكن لمحمد بن سليمان أخ لأبيه وأمه غيره ، فأطلعه على كتب أخيه ، فأكد جعفر ما كان يقوله من قبل : « **وهو أنه لا مال لأخيه ولا ضيعة إلا وقد أخذ أكثر من ثمنها ليتقوى به على ما كانت تحدثه به نفسه ـ من الوثوب على الخلافة ـ وأن أمواله حل طلق لأمير المؤمنين** » . وعندها أصدر الرشيد أمره باصطفاء كل ما كان محمد ابن سليمان قد خلفه ، وأرسل صاحب بيت المال رجلاً لأخذ الأموال ، كما أرسل رجلاً آخر للحصول على الكسوة ، وإلى الفرش

والرقيق والدواب من الخيل والإبل ، وإلى الطيب والجوهر ، وكل آلة برجلٍ من قبل الذي يتولى كل صنف من الأصناف . فقدموا البصرة ، فأخذوا جميع ما كان لمحمد مما يصلح للخلافة ، ولم يتركوا شيئاً إلا سقط المتاع مما لا يصلح للخلفاء ،وأصابوا له ستين ألف ألف ، فحملوها مع ما حمل . فلما صارت في السفن ، أُخبر الرشيد بمكان السفن التي حملت ذلك ، فأمر أن يُدخل جميع ذلك خزائنه إلا المال ؛ فإنه أمر بصكاك فكتبت للندماء ، وكتبت للمغنين صكاك صغار لم تسجل في الديوان ، ثم دفع إلى كل رجل صكاً بما رأى أن يهب له ، فأرسلوا وكلاءهم إلى السفن ، فأخذوا المال على ما أمر لهم به في الصكاك أجمع ، ولم يدخل منه بيت ماله دينار ولا درهم . واصطفى ضياعه ، وفيها ضيعة يقال لها (بَرَشيد ـ بالأهواز) لها غلة كثيرة . وذكر أنه لما مات محمد بن سليمان أصيب في خزانة لباسه مذ كان صبياً في الكُتَّاب إلى أن مات مقادير السنين التي عاشها ، فكان من ذلك ما عليه آثار النقش . وأخرج من خزانته ما كان يُهدى له من بلاد السند ومكران وكرمان وفارس والأهواز واليمامة والري وعُمان[1] .

لم يكن الرشيد بحاجة لأموال محمد بن سليمان حتى يصطفيها لنفسه ، ولم يكن بيت مال المسلمين في ضيق حتى يضم إليه أموال محمد بن سليمان ويتقوى بها ؛ فلقد كان الرشيد غنياً بمواريثه ، وكان كريماً إلى حد لا ينافسه فيه منافس ، وكان في بيت مال المسلمين فيض مما أفاء الله به على المسلمين . وإذن فليست القضية ـ

---

(١) انظر احداث سنة ١٧٣هـ ـ في تاريخ الطبري وفي الكامل في التاريخ ـ لابن الاثير .

من وجهة نظر الرشيد ـ أكثر من قضية تدبير وقائي من أجل اضعاف مراكز القوى المضادة ، وحرمانها من الفرصة التي تسمح لها بتشكيل قوة منافسة للخلافة . وكان الرشيد يعرف أهمية المـال في تشكيل مراكز القوى ، ولهذا عمل على اصطفائه وتوزيعه . غير أن الرشيد لم يفعل ذلك إضراراً بأحد ، أو رغبة في الانتقام . ولقد عرف الرشيد ما يحتمل أن يقوم به محمد بن سليمان من وثوب على الخلافة ، ولكنه لم يتخذ أي اجراء إلا المراقبة وتدابير الحيطة ، والانتظار حتى اللحظة المناسبة وجاء الموت بصورة طبيعية ليحسم الموقف في اللحظة المناسبة .

٥ ـ اخضاع يحيى بن عبد الله ـ بالديلم

كـان يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب قد ظهر بالديلم ، واشتدت شوكته ، وقوي أمره ، ونزع إليه الناس من الأمصار والكور ـ النواحي ـ . فاغتم لذلك الرشيد ، فندب إليـه (**الفضل بن يحيى**) في خمسين ألف رجـل ، ومعه صنـاديد القواد ، وولاه كور ـ نـواحي ـ الجبال والـري وجرجـان وطبرستـان وقـومس ودنباونـد والـرويـان وأرمينيـة وأذربيجـان ، وحملت معـه الأمـوال ، ففرق قـواده على الكور ـ النواحي ـ فولى (المثنى بن الحجاج بن قتيبة بن مسلم) طبرستان ، وولى (علي بن الحجـاج الخزاعي) جرجان ، وأمر له بخمسمائة ألف درهم .

كان (**الفضل بن يحيى**) قد استخلف في بغداد ـ على باب أمير المؤمنين الرشيد ـ (**منصور بن زياد**) إذ كان البـرامكة يثقـون بمنصور وابنه في جميـع أمورهم ، لقـديم صحبته لهم ، وحـرمته بهم ، فكـانت كتب الفضل تجـري على يـدي منصـور ، وكـانت جوابات أمير المؤمنين تأتي الفضل عن طريق منصور . ولم تزل كتب

الرشيد تتلاحق على الفضل ، بالبر واللطف والجوائز والخلع ، حتى نزل الفضل (بالنهرين) ثم سار بمعسكره حتى نزل بطالقان والري والدستبي ـ بموضع يقال له أشب ـ ، وكان البرد شديداً ، والثلج كثيفاً[1] فأقام الفضل بهذا الموضع .

كتب الفضل بن يحيى إلى يحيى بن عبد الله ، ورفق به ، واستماله ، وناشده ، وحذره ، وأشار عليه ، وبسط أمله ، كما كتب إلى (صاحب الديلم) وجعل له ألف ألف درهم ، على أن يسهل له خروج يحيى . ووجد يحيى أن الدائرة تضيق من حوله ، وأنه لاقبل له بحرب الرشيد ، فآثر السلامة ، ووافق على الخروج من الديلم ، واشترط لذلك أن يكتب له أمير المؤمنين كتاباً بخط يده على نسخة يبعث بها إليه . فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد ، فسره وعظم موقعه عنده ، وكتب أماناً ليحيى بن عبد الله ، وأشهد الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم (منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد ومحمد بن ابراهيم وموسى بن عيسى ومن أشبههم) ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا . فخرج يحيى بن عبد الله من الديلم ، وجاء الى بغداد برفقة الفضل ، فلقيه الرشيد بكل ما أحب ، وأجرى له أرزاقاً سنية ، وأنزله منزلاً سرياً بعد أن أقام في منزله يحيى بن عبد الله أياماً . وكان يتولى أمره بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى غيره ،

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٢٤٢ـ٢٥١، وابن الاثير ٥/٩٠ . وفي ذلك قال أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

لِدُورُ أمس بالدولا ... بِ حيث السَّيبُ ينعرجُ
أحبُّ إليَّ من دور ... أشَبَّ إذا هُمُ ثَلجُوا

وأمر الناس باتيانه والتسليم عليه ، وبلغ الرشيد الغاية في إكرام الفضل[١] .

أقبل الشعراء ، وكبار القوم يمتدحون الفضل بن يحيى ، ويعظمون صنيعه ، فأعطاهم فأكثر ، وتوسل إليه الناس بالشعر ، ففرّق فيهم أموالاً كثيرة[٢] .

أراد الرشيد ان يتحلل من التزامه بالأمان الذي كان قد منحه إلى يحيى بن عبد الله ، فأحضر الفقيه محمد بن الحسن ـ صاحب أبي يوسف ـ وأحضر القاضي أبا البختري ، ثم استدعى الأمان الذي كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : « ما تقول في هذا الأمان ؟ أصحيح هو؟ » قال محمد بن الحسن : « هو صحيح ! » فحاجه في

---

(١) وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة ممتدحاً الفضل :

ظفرت فلا شلّت يدٌ برمكيةٌ
رتقْت بها الفتْق الذي بين هاشِم
على حين أعْيا الراتقين التئامُهُ
فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخُطة
من المجد باقٍ ذكرها في المواسمِ
وما زال قِدحُ الملك يخرجُ فائزاً
لكم كلما ضمت قداحُ المُساهِمِ

(٢) وفي ذلك قال ابو ثمامة الخطيب :

للفضل يوم الطالَقان وقبلَهُ ... يوم أناخ به على خاقانِ
ما مثل يَوْمَيهِ اللذين تواليا ... في غزوتين توالتَا يَوْمانِ
سَدَّ الثُغور وردَّ أُلفة هاشمٍ ... بعد الشَّتاتِ ، فشعبها مُتَدانِ
عصمت حكومته جماعة هاشم ... من أن يُجرد بينها سيفانِ
تلك الحكومة لا التي عن لبسها ... عظم النبأ وتفرق الحكمانِ

ذلك الرشيد ، فقال لهمحمد بن الحسن : « ما تصنع بالأمان ؟ لو كان محارباً ثم وُلِّيَ كان آمنا » فاحتملها الرشيد على محمد بن الحسن . ثم سأل أبا البختري أن ينظر في الأمان ، فقال أبو البختري : « هذا منتقض من وجه كذا وكذا . . . » . فقال الرشيد : « أنت قاضي القضاة ، وأنت أعلم بذلك » فمزق الأمان ، وأصبح في حل من التزامه ، فأُلقي بيحيى في السجن .

* * *

دعا الرشيد بعد ذلك يحيى بن عبد الله ، فأخرج من السجن مكبلاً في الحديد ، وعنده بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير (وكان بكار شديد البغض لآل أبي طالب ، وكان يبلغ الرشيد عنهم ويسيء بأخبارهم . وكان الرشيد ولاه المدينة وأمره بالتضييق عليهم) فلما دعي يحيى قال له الرشيد متضاحكاً : « هيهْ ، هيهْ ـ وهذا يزعم أيضاً أنا سممناه ! » . فقال يحيى : « ما معنى يزعم ؟ ها هو ذا لساني ! » وأخرج لسانه أخضر مثل السلق . فتربد هارون ، واشتد غضبه . فقال يحيى : « **يا أمير المؤمنين ! إن لنا قرابة ورحماً ، ولسنا بترك ولا ديلم ، يا أمير المؤمنين ! إنا وأنتم أهل بيت واحد ، فأذكرك الله وقرابتنا من رسول الله ﷺ ! علام تحبسني وتعذبني ؟** » فرق له هارون . وأقبل الزبيري على الرشيد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! لا يغرك كلام هذا ، فإنه شاق عاص ، وإنما هذا منه مكر وخبث . إن هذا أفسد علينا مدينتنا ، وخالف كلمتنا ، وأراد خليفتنا ، وأظهر العصيان » . فأقبل يحيى عليه ، من غير أن يستأذن أمير المؤمنين الرشيد في الكلام ، وقال للزبير : « **نعم ؟ ومن أنتم عافاكم الله ؟ المدينة كانت مهاجر عبد الله بن**

الزبير أم مهاجر رسول الله ﷺ ؟ ومن أنت حتى تقول : أفسدت علينا مدينتنا ؟ وإنما بآبائي وآباء هذا ـ وأشار الى الرشيد ـ هاجر أبوك الى المدينة » ثم توجه يحيى بحديثه الى الرشيد ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ! إنما الناس نحن وأنتم ، فإن خرجنا عليكم قلنا أكلتم وأجعتمونا ، ولبستم وأعريتمونا ، وركبتم وأرجلتمونا ، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا ، فتكافأ فيه القول ، ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفضل . يا أمير المؤمنين ! فلم يجترىء هذا وضرباؤه على أهل بيتك ، يسعى بهم عندك ؟ إنه والله ما يسعى بنا إليك نصيحة منه لك ، وإنه يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا ، إنما يريد أن يباعد بيننا ، ويشتفي من بعض ببعض . والله يا أمير المؤمنين ، لقد جاء إلي هذا عندما قتل أخي محمد بن عبد الله فقال : لعن الله قاتله ! وأنشدني فيه مرثية قالها نحواً من عشرين بيتاً ، وقال لي : إن تحركت في هذا الأمر ، فأنا أول من يبايعك ، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة ، فأيدينا مع يدك » .

تغير وجه الزبيري ، وأقبل عليه الرشيد فقال له : « أي شيء يقول هذا ؟» فرد الزبيري بقوله : « كاذب يا أمير المؤمنين ! ما كان مما قال حرف » فوجه الرشيد خطابه إلى يحيى بن عبد الله ، وسأله : « هل تروي القصيدة التي رثاه بها ؟ » فقال يحيى : « نعم يا أمير المؤمنين ، أصلحك الله !» وأنشده إياها ، لم ينقص منها بيتاً . فقال الزبيري : « والله يا أمير المؤمنين الذي لا إله إلا هو ـ حتى أتى على آخر اليمين الغموس ـ ما كان مما قال شيء ، ولقد تقوّل عليّ ما لم أقل » وعاد الرشيد فخاطب يحيى بن عبد الله ، وقال له : « قد حلف ، فهل من بينة سمعوا هذه المرثية منه ؟ » فقال : « لا يا أمير

المؤمنين ! ولكن استحلفه بما أريد » قال الرشيد : « استحلفه ! » فقال يحيى للزبيري : « قم يا عبد الله فصل إن رأيت ذلك » وقام يحيى فصلى ركعتين خفيفتين وصلى الزبيري ركعتين . ثم برك يحيى وقال للزبيري : « ابرك ! » ثم شبك يمينه في يمينه وقال : « **اللهم إن كنت تعلم أني دعوت عبد الله بن مصعب إلى الخلاف على هذا** ـ ووضع يده على الرشيد وأشار إليه ـ **فاسحتني بعذاب من عندك ، وكلني إلى حولي وقوتي ، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحته بعذاب من قبلك . آمين رب العالمين** » فقال عبد الله : « **آمين رب العالمين** » . فقال يحيى بن عبد الله لعبد الله بن مصعب : « قل كما قلت » . فقال الزبيري مخاطباً الرشيد : « يا أمير المؤمنين ! أي شيء هذا من الحلف ؟ أحلف له بالله الذي لا إله إلا هو ، ويستحلفني بشيء لا أدري ما هو ! » قال يحيى بن عبد الله : « يا أمير المؤمنين ! إن كان صادقاً فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به » فقال الرشيد للزبيري : « احلف له ويلك ! » فقال الزبيري : « **اللهم إن كنت تعلم أن يحيى بن عبد الله لم يدعني إلى الخلاف على هذا فكلني إلى حولي وقوتي واسحتني بعذاب من عندك ، وإلا فكله إلى حوله وقوته ، واسحته بعذاب من عندك . آمين رب العالمين** » .

خرج الزبيري من مجلس الرشيد ، ولم يكد يصل منزله حتى أصابه الفالج ومات .

وعلم الرشيد بما أصابه ، فاستدعى إليه يحيى ـ وكان قد حبسه في ناحية من الدار ـ وعندما أدخل إليه ، قال له الرشيد : « يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الجبار ! » فرد يحيى بقوله : « الحمد لله الذي أبان لأمير المؤمنين كذب عدوه علي ، وأعفاه من

قطع رحمه . والله يا أمير المؤمنين لقد جاء بشيء ، لو قيل لمن هو أقل منك فيمن هو أكبر مني ، وهو مقتدر عليه ، لما أفلت منه أبداً . والله يا أمير المؤنين ، لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلح له وأريده ، فكيف ولست بطالب له ولا مريده، ولو لم يكن الظفر به إلا بالاستعانة به ، ثم لم يكن في الدنيا غيري وغيرك وغيره ما تقويت به عليك أبداً . وهذا أيضاً والله من إحدى آفاتك ـ وأشار إلى الفضل بن الربيع ـ والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ، ثم طمع مني في زيادة ثمرة لباعك بها » .

أمر الرشيد ليحيى بمائة ألف دينار ، وأطلق سراحه ، غير أنه لم يلبث طويلاً بعد ذلك حتى وافته المنية . واستراح الرشيد من قريب يمتلك القدرة على المنافسة ، ويمتلك من قوة الحجة وفصاحة اللسان ما كان حرياً به أن يؤهله للخلافة[1] .

لم يكن الرشيد مفتئتاً على ابن عمه يحيى بن عبد الله ، ولا متجنّياً ، فقد كانت لديه حججه وذرائعه ، وكانت له في توطيد ملكه ، ملك المسلمين ، وجهة نظره واجتهاده ، وهي وجهة نظر لم

---

(١) جاء في تاريخ الطبري ٨/٢٤٤ ما يلي : « لما قدم يحيى بن عبد الله من الديلم ، ونزل في دار علي بن أبي طالب ، جاءه عبد الله بن موسى وقال له : يا عم ! ما بعدك مخبر ، ولا بعدي مخبر ، فأخبرني خبرك . فرد عليه يحيى بقوله : يابن أخي ، والله إن كنت إلا كما قال حيي بن أخطب :

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يَخذل الله يُخذَلِ
لجاهَدَ حتى أبلغ النفس خَمْدَها وقلقل يبغي العِزَّ كلَّ مقلقلِ

تعد غريبة على دنيا المسلمين . إنها السياسة التي انتهجها (بنو أمية) ذاتها ، وجاء بنو عمومتهم (بنو العباس) فساروا على النهج ، وسلكوا الدرب ، بعد أن صار ممهداً ، إنها سياسة (الطاعة والجماعة) . سياسة الدولة التي توحد ولا تفرق ، وتجمع ولا تبدد . ولئن كانت الفتن تغلب على الجماعة أحياناً ، فتضعف الدولة وترهقها ، إلا أن خلفاء المسلمين على التتابع ، أفادوا من الخبرات المتناقلة ، وثمار التجارب المتوارثة ، فدأبوا على تقويم السياسات تجاه الشعوب الإسلامية بما يضمن تحقيق (الطاعة والجماعة) لمصلحة الإسلام والمسلمين . وقد عرف الرشيد خطورة الفرقة فاجتهد قدر المستطاع حتى يستبق الأحداث ، وحتى لا يترك للفتنة الفرصة كيما تطل بقرينها . ويذكر للرشيد في هذا المجال موقفه في بداية عهده (سنة ١٧١ هـ) إذ أمر بإخراج من كان في مدينة السلام من الطالبيين (أحفاد علي بن أبي طالب وأنصارهم) ونقلهم إلى المدينة المنورة ـ مدينة الرسول ﷺ ـ خلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن علي بن أبي طالب ، في حين كان أبوه ـ الحسن بن عبد الله ـ فيمن نقل الى المدينة المنورة .

٦ ـ ولاية عمر بن مهران مصر

كانت ولاية مصر في سنة ١٧٦هـ للوالي (موسى بن عيسى) ، فعلم الرشيد أن هذا الوالي عازم على الخلع (التمرد) فاهتم لذلك ، وجعل أمر مصر إلى جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، وقال الرشيد : « **والله لا أعزله إلا بأخس مَنْ على بابي** » ـ ثم قال : « انظروا لي رجلاً ! » فذكر عمر بن مهران ـ وكان إذ ذاك يكتب للخيزران ، ولم يكتب لغيرها ـ وكان رجلاً أحول مشوه الوجه ، وكان لباسه خسيساً ، أرفع ثيابه طيلسانه ، وكانت قيمته ثلاثين درهماً وكان يشمر ثيابه ويقصر أكمامه ، ويركب بغلاً وعليه رسن ولجام حديد ، ويردف غلامه خلفه ، فأمر جعفر باحضار عمر ابن مهران، فأحضره ، وقال له الرشيد : « **أتسير إلى مصر أميراً ؟ ولك خراجها وضياعها وحربها !** » فرد عمر بقوله : « **أتولاها على شرائط ، احداها أن يكون اذني إلى نفسي ، إذا أصلحت البلاد انصرفتُ** » ، فأجابه الرشيد إلى ذلك ، ومضى عمر بن مهران الى مصر .

علم موسى بن عيسى بخبر ولاية عمر بن مهران ، فأخذ يتوقع وصوله . ودخل عمر بن مهران مصر على بغل ، وغلامه أبو درة على بغل ثقل ، فقصد دار موسى بن عيسى والناس عنده ، فدخل فجلس في أخريات الناس . فلما تفرق أهل المجلس ، قال موسى بن عيسى لعمر : « ألك حاجة يا شيخ ؟ » ورد عمر : « نعم ـ أصلح الله الأمير » . ثم قام بالكتب ، فدفعها إليه ، فقال : يقدم أبو حفص ، أبقاه الله . فقال عمر : « أنا أبو حفص » فبوغت موسى وقال : « أنت عمر بن مهران ؟ » فرد عمر : « نعم » فقال موسى : « **لعن الله فرعون حين قال** ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصر**﴾[1] ثم سلم له العمل ورحل .

طلب عمر بن مهران من غلامه أبي درة أن يمتنع عن قبول الهدايا ـ إلا ما يدخل في الجراب ـ وأن لا يقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً . وأخذ الناس يبعثون بهداياهم ، فجعل أبو درة يرد ما كان من الألطاف ، ويقبل المال والثياب ، ويأتي بها عمر ، فيسجل عليها أسماء من بعث بها . ثم وضع الجباية ـ وكان بمصر قوم قد اعتادوا المطّل وكسر الخراج ـ فبدأ برجل منهم ، فطالبه بالخراج ، فلواه ، فقال : « والله لا تؤدي ما عليك من الخراج إلا في بيت المال بمدينة السلام إن سلمت » فأجاب الرجل : « فأنا أؤدي » فتحمل عليه عمر ، فقال له : « قد حلفت ولا أحنث ! » . وأرسله مع رجلين من الجند ـ وكان العمال إذ ذاك يكاتبون الخليفة ـ فكتب معهم إلى الرشيد : « . . . **إني دعوت بفلان بن فلان ، وطالبته بما عليه من**

---

(١) سورة الزخرف ـ الآية ٥١ ، وانظر تاريخ الطبري وابن الاثير احداث سنة ١٧٦ هـ و١٧٨هـ .

الخراج ، فلواني واستنظرني ، فأنظرته ثم دعوته ، فدافع ومال إلى الإلطاط ـ الجحود ـ وقد أنفذته مع فلان بن فلان ، وفلان بن فلان ، من جند أمير المؤمنين ، من قيادة فلان بن فلان وآليت ألا يؤديه إلا في بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا . . فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلي بوصوله فعل ، إن شاء الله تعالى» .

أسرع الناس لدفع ما عليهم من الخراج ، ولم يمتنع أحد ، ولم يحاول أحد كسر الخراج أو التمهل والمطْل . فاستأدى الخراج ، النجم الأول ـ القسط الأول ـ ثم النجم الثاني ، فلما كان النجم الثالث ، وقعت المطالبة والمطْل . فأحضر أهل الخراج والتجار فطالبهم ، فدافعوا وشكوا الضيقة . فأمر بإحضار تلك الهدايا التي بعث بها إليه ، ونظر في الأكياس ، وأحضر الجهبذ ـ المسؤول عن بيت مال المسلمين ـ فوزن ما فيها وأجزاها عن أهلها . ثم دعا بالأسفاط ، فنادى على ما فيها ، فباعها وأجزى أثمانها عن أهلها ، ثم قال : « **يا قوم ! حفظت عليكم هداياكم الى وقت حاجتكم إليها ، فأدوا إلينا مالنا** » . فأدوا إليه حتى أغلق مال مصر ، فانصرف ، ولا يعلم أنه أغلق مال مصر غيره . وانصرف من مصر ، فخرج كما دخلها ، وهو يركب على بغل ومعه أبو درة يركب على بغل أيضاً . ولم يستأذن الرشيد ـ إذ كان إذنه إليه ـ منذ قدم إلى مصر بشرطه الذي أقره عليه الرشيد .

لما كانت السنة التالية ـ سنة سبع وسبعين ومائة ـ عزل الرشيد (جعفر بن يحيى) عن مصر ، وولاها إلى (اسحاق بن سليمان) ، فلم يتمكن من السير على نهج عمر بن مهران ، فثار الحوفية بمصر ـ من قيس وقضاعه ـ (سنة ١٧٨هـ) وعملوا على قتاله ، فاستنجد

بالرشيد ، فوجه الرشيد إليه (هرثمة ابن أعين) في عدة من القواد المضمومين إليه مدداً لإسحاق بن سليمان حتى أذعن أهل (حوف) ودخلوا في الطاعة ، وأدوا ما كان عليهم من وظائف السلطان . فلما انقضى أمر الحوفية عزل الرشيد عامله السابق (إسحاق بن سليمان) وولاها هرثمة بـن أعين نحواً من شهر ، ثم عزله وولاها عبد الملك بن صالح .

لقد عرف الرشيد يقيناً ما توافر لعمر بن مهران من الدين القويم والخلق الكريم ، قبل أن يستدعيه لولاية مصر ، ومن أجل ذلك ، لم يباغت الرشيد بموقف الرجل يوم وقف أمامه ليفرض شرطه ، فوافق على شـرطه ، فقبـل الـولايـة بمحض إرادتـه ، ورفضهـا بمحض اختيـاره ، قبلها ابتغـاء الله ومـرضـاتـه ، وعـزف عنهـا ابتغـاء الله ومرضاته ؛ لم يجرد سيفاً ، ولم يزهق روحاً ، ولم يتجنَّ على أحد . غير أنه أخذ بالحزم ، وابتغى العدل ، ففاز فيما أولاه الله ، وما رفعه إليه . وكان مثالاً للحاكم المسلم ، ونموذجاً يقتدى . ولم يكن غريباً أن يمتاز عهد الرشيد بالعزة والقوة ، وقد توافر له من الرجال من أمثال عمر بن مهران ، ومن أمثال القاضي (أبو يوسف) ومن أضرابهم كثير لا يعلمهم الا الله ، فقد حفظ التاريخ الكثير ، وأغفل الكثير ؛ ذلك لأن توافر مثل هؤلاء الرجال لم يكن غريبـاً على عهود المسلمين ، ولعل هذا هو السبب الذي دفع المؤرخين إلى عدم إظهار اهتمام كبير بالنماذج الفاضلة ، لأنهم من طبيعة المجتمع العربي ـ الاسلامي ، في حين أظهر اهتماماً أكبر بتسجيل تلك النماذج الغريبة عن طبيعة المجتمع الاسلامي ـ من أمثال أبي النواس وأضرابه ـ ، ويبقى أمر هؤلاء وأولئك ليوم الحساب . ولم يكن تعيين عمر بن مهران على كل

حال إلا برهاناً على أن أمور المسلمين في عهد الرشيد لم تكن وقفاً على الخاصة في المجتمع الاسلامي بقدر ما كـانت مشاعـاً لذوي الكفاءة ممن عرفوا بصدق إيمانهم وصفاء إسلامهم ، بصرف النظر عن ظواهرهم الخارجية أو تكوينهم وطبائعهم .

٧ ـ الفتنة بدمشق

لم تخمد ثائرة الفتنة بين مراكز القوى التي كانت تمثلها المضرية واليمانية . لقد كانت الصراعات تمثل نوعاً من الحيوية الدافقة المتفجرة بأكثر مما تمثل العصبية الجاهلية . وقد حدث في سنة ست وسبعين ومائة للهجرة (١٧٦هـ) أن رجلاً من بني القين خرج بطعام يطحنه في الرحى بالبلقاء ، فمر بمنزل رجل من لخم أو جذام ، وفيه بطيخ وقثاء ، فتناول منه ، فشتمه صاحبه وتضاربا ، وسار القيني ، فجمع صاحب البطيخ قوماً من أهل اليمن ليضربوه إذا عاد . فلما عاد ضربوه ، وأعانه قوم آخرون ، فقتل رجل من اليمانية ، وطلبوا بدمه ، فاجتمعوا لذلك . وكان على دمشق حينئذ (عبد الصمد بن علي) . فلما خاف الناس أن يتفاقم ذلك ، اجتمع أهل الفضل والرؤساء ، ليصلحوا بينهم ، فأتوا بني القين ، فكلموهم ، فأجابوهم إلى ما طلبوا ، فأتوا اليمانية فكلموهم ، فقالوا : « إنصرفوا حتى ننظر » ، ثم ساروا فبيتوا بني القين ، فقتلوا منهم ثلثمائة ، وقيل ستمائة ، فاستنجد بنو القين قضاعة وسليماً فلم ينجدوهم ، فاستنجدوا قيساً فأجابوهم ، وساروا معهم إلى الصواليك

من أرض البلقاء ، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة ، وكثر القتل بينهم ، فالتقوا مرات .

أصدر الرشيد أمره بعزل عامله على دمشق (عبد الصمد بن علي) وعين عليها (ابراهيم بن صالح بن علي)، غير أن الفتنة استمرت ، والتقوا بالبثينة ، فقتل من اليمانية نحو ثمانمائة ، ثم اصطلحوا بعد شر طويل . ووفد ابراهيم بن صالح على الرشيد ، وكان ميله مع اليمانية ـ فأوقع في (القيسية) عند الرشيد ـ فاعتذر عنهم (عبد الواحد بن بشر النصري ـ من بني نصر ـ) فقبل الرشيد عذرهم ، ورجعوا . **واستخلف ابراهيم بن صالح على دمشق ابنه (اسحق) وكان ميله أيضاً مع اليمانية** ، فأخذ جماعة من قيس فحبسهم وضربهم وحلق لحاهم ، فنفر الناس . ووثبت غسان برجل من ولد قيس بن العبسي فقتلوه ، فجاء أخوه إلى ناس من الزواقيل بحوران ، فاستنجدهم ، فأنجدوه ، وقتلوا من اليمانية نفراً . ثم ثارت اليمانية بكليب ابن عمرو بن الجنيد بن عبد الرحمن ، وعنده ضيف له ، فقتلوه ، فجاءت أم الغلام بثيابه إلى (**أبي الهيذام**) فألقتها بين يديه ، فقال لها : « **انصرفي ! حتى ننظر ، فإني لا أخبط خبط العشواء حتى يأتي الأمير ، ونرفع إليه دماءنا ، فإن نظر فيها ، وإلا فأمير المؤمنين ينظر فيها** » ، ثم سار أبو الهيذام لمقابلة اسحق فلم يأذن له[1] . ثم إن ناساً من الزواقيل قتلوا رجلاً من اليمانية ،

---

(١) جاء في الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير ـ ٩١/٥ ـ في موضوع أبي الهيذام ما يلي : كان أبو الهيذام رأس المضرية ، واسمه عامر بن عمارة بن خريم الناعم . . . أحد فرسان العرب المشهورين ، وكان سبب الفتنة أن عاملاً للرشيد بسجستان قتل أخاً لأبي الهيذام ، فخرج أبو الهيذام بالشام ، وجمع جمعاً عظيماً . وقال يرثي أخاه : =

وقتلت اليمانية رجلاً من سليم ، ونهبت أهل (تلغياثا ـ وهم جيران محارب) فجاءت محارب إلى أبي الهيذام ، فركب معهم إلى (إسحاق) في ذلك ، فوعدهم الجميل ، فرضي . فلما انصرف أرسل (اسحاق) إلى اليمانية يغريهم بأبي الهيذام ، فاجتمعوا وأتوا أبا الهيذام من باب الجابية ، فخرج إليهم في نفر يسير ، فهزمهم ، واستولى على دمشق ، وأخرج أهل السجون عامة ، ثم ان أهل اليمانية استجمعت واستنجدت كلباً وغيرهم ، فأمدوهم . وبلغ الخبر أبا الهيذام ، فأرسل الى المضرية ، فأتته الإمدادات وهو يقاتل اليمانية عند باب توما ـ من دمشق ـ فانهزمت اليمانية . ثم إن اليمانية أتت قرية لقيس عند دمشق ، فأرسل أبو الهيذام إليهم الزواقيل ، فقاتلوهم ، فانهزمت اليمانية أيضاً ، ثم لقيهم جمع آخر فانهزموا أيضاً ،ثم أتاهم الصريخ : « أدركوا باب توما » فأتوه ، فقاتلوا اليمانية ، فانهزمت اليمانية أيضاً ، فهزموهم في يوم واحد أربع مرات ، ثم رجعوا إلى أبي الهيذام . ثم أرسل (اسحاق) الى أبي الهيذام يأمره بالكف ، ففعل ، وأرسل الى اليمانية : « . . . قد كففته عنكم ، فدونكم الرجل فهو غار » فأتوه من باب شرقي

= سأبكيكَ بالبيض الرقاق وبالقنا
فإنَّ بها ما يدرك الطالب الوترا
ولسنا كمن ينعي أخاه بعبرة
يعصرها من ماء مقلته عصرا
وإنّا أناس ما تفيض دموعنا
على هالك منا وإنْ قصم الظهرا
ولكنني أشفي الفؤاد بغارة
ألهب في قطري كتائبها جمرا

متسللين ، فأتى الصريخ أبا الهيذام ، فركب في فوارس من أهله فقاتلهم فهزمهم ، ثم بلغه خبر جمع آخر لهم على باب توما فأتاهم فهزمهم أيضاً ، ثم جمعت اليمانية أهل الأردن والجولان وكلباً وغيرهم . وأتى الخبر أبا الهيذام ، فأرسل من يأتيه بخبرهم ، فلم يقف لهم على خبر في ذلك . وجاءوا من جهة أخرى ، كان آمناً منها لبناء فيها ، فلما انتصف النهار ولم ير شيئاً، فرق أصحابه فدخلوا المدينة ودخلها معهم وخلف طليعة . **فلما رآه (إسحاق) قد دخل ، أرسل إلى ذلك البناء فهدمه ، وأمر اليمانية بالعبور ، ففعلوا ،** فجاءت الطليعة الى (أبي الهيذام) فأخبروه الخبر وهو عند باب الصغير . ودخلت اليمانية المدينة ، وحملوا على (ابي الهيذام) فلم يبرح ، وأمر بعض أصحابه أن يأتي اليمانية من ورائهم ، ففعلوا ، فلما رأتهم اليمانية تنادوا : الكمين ـ الكمين ـ وانهزموا ، وأخذ منهم سلاحاً وخيلاً .

جمع بعد ذلك حاكم دمشق (اسحاق) جنوده وأقام معسكره عند (قصر الحجاج ـ في دمشق) ، فما كان من أبي الهيذام إلا أن استنفر أصحابه ، فجاءته بنو القين وغيرهم ، واجتمعت اليمن إلى (اسحاق) فالتقى بعض العسكر فاقتتلوا . فانهزمت اليمانية ، وقتل منهم ، ونهب أصحاب أبي الهيذام بعض منازل قرية (داريا) المجاورة لدمشق ، وأحرقوا فيها ، ورجعوا . وأغار هؤلاء فنهبوا وأحرقوا واقتتلوا غير مرة فانهزمت اليمانية أيضاً ، فأرسلت ابنة (الضحاك بن رمل السكسكي ـ وهي يمانية ـ) إلى أبي الهيذام تطلب منه الأمان ، فأجابها وكتب لها ، ونهب القرى التي لليمانية بنواحي دمشق وأحرقها . فلما رأت اليمانية ذلك أرسل اليه (ابن خارجة

الحرشي) و (ابن عزة الخشني) وأتاه الأوزاع والأوصاب ومقرا وأهل كفرسوسة والحميريون وغيرهم يطلبون الأمان ، فأمنهم ، فسكن الناس وأمنوا . وفرق (أبو الهيذام) أصحابه وبقي في نفر يسير من أهل دمشق ، فطمع فيه (إسحاق) فبذل الأموال للجنود ليحارب أبا الهيذام ، وأرسل (العذافر الكسكسي) في جمع لقتال أبي الهيذام ، فقاتلوهم وانهزم العذافر . ودامت الحرب بين أبي الهيذام وبين الجنود من الظهر إلى المساء . وحمل خيل أبي الهيذام على الجند ، فجالوا ثم تراجعوا وانصرفوا وقد جرح منهم أربعمائة ولم يقتل منهم أحد وذلك نصف صفر (١٧٧هـ) . فلما كان الغد لم يقتتلوا إلى المساء . فلما كان آخر النهار تقدم (اسحاق) في الجند ، فقاتلهم عامة الليل وهم بالمدينة واستمد أبو الهيذام أصحابه ، وأصبحوا من الغد ، فاقتتلوا والجند في اثني عشر ألفاً ، وجاءتهم اليمانية مدداً لهم . وخرج أبو الهيذام من المدينة ، فقال لأصحابه وهم قليلون : انزلوا ، فنزلوا ، وقاتلوهم على باب الجابية حتى أزالوهم عنه . ثم ان جمعاً من أهل حمص ، أغاروا على قرية لأبي الهيذام ، فأرسل طائفة من أصحابه إليهم ، فقاتلوهم ، فانهزم أهل حمص ، وقتل منهم بشر كثير ، وأحرقوا قرى في الغوطة لليمانية ، وأحرقوا داريا ، ثم بقوا نيفاً وسبعين يوماً لم تكن حرب .

فقدم السندي مستهل ربيع الآخر ، في الجنود ، من عند الرشيد ، فأتته اليمانية تغريه بأبي الهيذام . وأرسل أبو الهيذام إليه يخبره أنه على الطاعة ، فأقبل حتى دخل دمشق و (اسحاق) بدار الحجاج . فلما كان الغد ، أرسل السندي قائداً في ثلاثة آلاف ، وأخرج اليهم أبو الهيذام ألفاً ، فلما رآهم القائد رجع إلى السندي ، فقال له : « أعطهم ما أرادوا ، فقد رأيت قوماً الموت أحب إليهم من

الحياة » . فصالح أبا الهيذام ، وأمن أهل دمشق والناس . وسار (أبو الهيذام) إلى حوران ، وأقام السندي بدمشق ثلاثة أيام ، وقدم (موسى بن عيسى) والياً عليها ، فلما دخلها أقام بها عشرين يوماً ، واغتنم غرة أبي الهيذام ، فأرسل من يأتيه به . فكبسوا داره ، فخرج هو وابنه خريم وعبد له ،فقاتلوهم ونجا منهم وانهزم الجند ، وسمعت خيل أبي الهيذام فجاءته من كل ناحية . وقصد بصرى وقاتل جنود موسى بطرف اللجاة ، فقتل منهم ، وانهزموا . ومضى أبو الهيذام فلما أصبح أتاه خمسة فوارس من عند أخيه ، يأمره بالكف ، ففعل ، ومضى معهم ، وأمر أصحابه بالتفرق ـ وكان ذلك لعشر بقين من رمضان (سنة ١٧٧ هـ) ـ وحمل أبو الهيذام الى بغداد ، فمنَّ الرشيد عليه وأطلقه .

يظهر من العرض الوجيز لمسيرة الأحداث أن الفتنة كانت مفتعلة ، وقد حاول أبو الهيذام رأس المضرية تجنب الحرب مرات عديدة رغم ما كان يمتلكه من القوة والاقتدار ، ورغم سيطرته على الموقف . وقد حاولت اليمانية الاستعانة بالسلطة بصورة مستمرة لضرب خصومهم ، فكان الفشل حليفهم والسلطة التي دعمتهم ، وعلى الباغي تدور الدوائر . وعلى هذا فإن عفو الرشيد عن شيخ المضرية ـ أبي الهيذام ـ لم يكن إلا إحقاقاً للحق وابتغاء للعدل . فأبي الهيذام لم يشق عصا الطاعة ، ولا عمل على تفرقة كلمة الجماعة ، وإنما دفع للقتال ، فقاتل بشرف ، وقاد قومه بكفاءة . ولم يكن إيمان قومه وشدة بأسهم حتى وصفهم قائد عدوهم بأنهم يحبون الموت أكثر من الحياة ، إلا نتيجة لشعورهم بالظلم ، وأنهم دفعوا إلى القتال مكرهين ، فخاضوا الحرب بشجاعة نادرة ، أرغمت خصومهم على

الاعتراف لهم بحقهم .

لم يكن باستطاعة الرشيد ترك الحبل على غاربه ، فعمل في البداية على تعيين موسى بن يحيى بن خالد ـ البرمكي ـ لولاية الشام ، وضم إليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة . وأقام موسى حتى أصلح بين أهلها ، وسكنت الفتنة ، واستقام أمرها . فانتهى الخبر إلى الرشيد ، بمدينة السلام ، ورد الرشيد فيهم إلى يحيى ، فعفا عنهم ، وعما كان بينهم ، وأقدمهم بغداد[1] . غير أن الفتنة عادت فاشتدت ، وتفاقم أمرها ، فاغتم بذلك الرشيد ، فعقد

---

(١) وفي ذلك قال اسحاق بن حسان الخزيمي (تاريخ الطبري ٨/٢٥١ ـ ٢٥٢) .

من مُبْلغ يحيى ودون لقائه ... زأرات كل خنابسٍ هَمْهامِ
يا راعي الإسلام غير مُفَرّطٍ ... في لين مغتبطٍ وَطيب مشامِ
تغذي مشاربهُ وتسقى شربةً ... ويبيتُ بالرَّبوات والأعلام
حتى تنخنَخ ضارباً بجرانه ... ورستْ مراسيه بدار سلام
فلكل ثغر حارسٌ من قلبهِ ... وشُعاعُ طرفٍ ما يُغَتَّرُ سام

وقال في موسى غيرُ أبي يعقوب :

قد هاجت الشأمُ هيجاً ... يُشيب راسَ وليده
فَصُبَّ موسى عليها ... بخيله وجنوده
فدانتِ الشأمُ لما ... أتى نسيجَ وحيده
هو الجوادُ الذي بُـ ... ـذَّ كل جودٍ بجوده
أعداهُ جودُ أبيه ... يحيى وجود جُدوده
فجاد موسى بن يحيى ... بطارف وتليدِه
ونال موسى ذرى المجـ ... ـدِ وهوَ حشو مهودِه
خصصته بمديحي ... منثوره وقصيده
من البرامك عودٌ ... له فأكرم بعوده
حوَوْا على الشعر طراً ... خفيفه ومديده

لجعفر بن يحيى على الشام ، وقال له : « **إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا** » فقال له جعفر : « **بل أقيك بنفسي** » . وخرج جعفر ، ومعه معظم قواده ، وحشد جيشاً قوياً ، وجعل على شُرَطه العباس بن محمد بن المسيب بن زهير ، وعلى حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة ، فأتاهم فأصلح بينهم ، وقتل زواقيلهم ـ لصوصهم ـ والمتلصصة منهم ، ولم يَدَع بها رمحاً ولا فرساً ، فعادوا الى الأمن والطمأنينة ، وأطفأ تلك النائرة .

عندما أنجز (جعفر بن يحيى) مهمته ، عين (صالح بن سليمان) على البلقاء ، واستخلف على الشام (عيسى بن العكي) وانصرف ، فازداد الرشيد له إكراماً . فلما قدم على الرشيد دخل عليه ـ فيما ذكر ـ فقبل يديه ، ثم مثل بين يديه وألقى كلمة طويلة ، قد يكون من المناسب التعرض لها ، لابراز ذلك النهج الذي كان يسير عليه ـ البرامكة ـ في علاقتهم مع الرشيد ، وفي الوقت ذاته الإشارة الى استئثار هؤلاء البرامكة بإقامة العلاقات الحسنة مع جماهير الشعب وتكوين قاعدة قوية لهم ، ورعاية الأدباء والشعراء حتى تنحل عقدة ألسنتهم ، فتلهج بالثناء عليهم ، والمديح لأعمالهم[1]

---

(١) من ذلك ما قاله منصور النمري (انظر تاريخ الطبري ٨/٢٦٢ ـ ٢٦٣) :

لقد أوقدت بالشأم نيران فتنة
فهذا أوانُ الشأم تخمد نارها

إذا جاش موج البحر من آل برمك
عليها، خَبَتْ شهبانها وشرارُها

رماها أمير المؤمنين بجعفر
وفيه تلاقى صدعها وانجبارها =

فيسير ذلك بين الناس ، فيزدادون إقبالاً عليهم ، والتفافاً حولهم .

كان مما قاله (جعفر بن يحيى) وقد مثل بين يدي الرشيد :

= رماها بميمون النقيبة ماجد
تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية
دموغ لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجي غابة في رؤوسها
نجوم الثريا والمنايا ثمارها
إذا خفقت راياتها وتجرست
بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لأهل الشأم لا يَسْلُبَنكُمْ
حجاكُمْ طويلاتِ المنى وقصارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه
أتاكم وإلا نفسه فخيارُها
هو الملك المأمول للبر والتقى
وصولاته لا يُستطاعُ خِطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفُهُ
وَصَعْدَتُهُ والحربُ تَدْمى شفارُها
ومن تُطوَ أسرار الخليفةِ دونه
فَعِندكَ مأواها وأنت قرارُها
وفيتَ فلم تغدر لقوم بِذمةٍ
ولم تَدنُ من حالٍ ينالك عارها
طبيبٌ بإحياء الأمور إذا التوت
من الدهر أعناقٌ ، فأنت جُبارُها
إذا ما ابن يحيى جعفر قَصَدت لهُ
ملماتُ خطْب لم تَرُعْهُ كبارُها =

« الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم تضرعي ، وأنسأ في أجلي ، حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه ، وامتن عليَّ بتقبيل يده ، وردني إلى خدمته . فوالله إن كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي ، والمقادير التي أزعجتني ، فاعلم أنها كانت بمعاص لحقتني ، وخطايا أحاطت بي . ولو طال مقامي عنك يا أمير المؤمنين ـ جعلني الله فداك ـ لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً على قربك ، وأسفاً على فراقك ، وأن يعجل بي عن إذنك الاشتياق إلى رؤيتك ، والحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة ، وأمتعني بالعافية ، وعرفني الإجابة ، ومسكني بالطاعة ،

= لقد نشأت بالشأم منك غمامة
يؤمَّلُ جدواها ويخشى دمارُها
فطوبى لأهل الشأم يا ويل أمها
أتاها حياها ، أو أتاها بَوارُها
فإن سالموا كانت غمامة نائل
وغيثٍ ، وإلا فالدماء قطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد
أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى في البرمكيين من ندى
ومن سابقاتٍ ما يُشق غبارها
غدا بنجوم السعد من حلَّ رَحلهُ
إليك ، وعزت عصبةُ أنت جارُها
عذيري من الأقدار هل عزماتُها
مخلفتي عن جعفر واقتارُها
فعين الأسى مطروفة لفراقه
ونفسي إليه ما ينام ادّكارها

وحال بيني وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذنك وأمرك ، ولم يختر مني أجلي دونك .

والله يا أمير المؤمنين ـ ولا أعظم من اليمين بالله ـ لقد عاينتُ ما لو تعرض لي الدنيا كلها لاخترت عليها قربَك ، ولما رأيتها عوضاً من المقام معك . وإن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يبليك في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك ، ويريك في رعيتك غاية أمنيتك ، فيصلح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويلم شعثهم ، حفظاً لك فيهم ، ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك ، والاعتصام بحبل مرضاتك ، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه . وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشأم وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك ، آمنون بادرتك ، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم ، وتغمده لهم سابق لمعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لمسألتهم .

وأيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم ، وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مُرّاقهم وأصلح دهماءهم ، وأولاني الجميل فيهم ، ورزقني الانتصار منهم فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك ، وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك ورجائهم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك ، وما عاملتهم إلا بأمرك ، ولا سرت فيهم إلا على حد ما مثلته لي ورسمته ، ووقفتني عليه . ووالله ما انقادوا إلا لدعوتك ،

وتوحد الله بالصنع لك ، وتخوفهم من سطوتك . وما كان الذي كان مني ـ وإن كنت بذلت جهدي وبلغت مجهودي ـ قاضياً ببعض حقك علي ، بل ما ازدادت نعمتك علي عظيماً إلا ازددت عن شكرك عجزاً وضعفاً . وما خلق الله أحداً من رعيتك أبعد من أن يطمع نفسه في قضاء حقك مني ، وما ذلك إلا أن أكون باذلاً مهجتي في طاعتك ، وكل ما يقرب إلى موافقتك ، ولكني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري فكيف بشكري وقد أصبحت واحدَ أهل دهري فيما صنعته فيَّ وبي ! أم كيف بشكري وإنما أقوى على شكري بإكرامك إياي ! وكيف بشكري ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدي ! وكيف بشكري وأنت كهفي دون كل كهف لي !! وكيف بشكري وأنت لا ترضى لي ما أرضاه لي ! وكيف بشكري وأنت تجدد من نعمتك عندي ما يستغرق كل ما سلف عندك لي ! أم كيف شكري وأنت تنسيني ما تقدم من إحسانك إلي بما تجدده لي ! كيف بشكري وأنت تقدمني بطولك على جميع أكفائي ! أم كيف بشكري وأنت وليي ! أم كيف بشكري وأنت المكرم لي ! وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ، إذا كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه ، بل دون نصيب من عشر عشيره أن يتولى مكافأتك عني بما هو أوسع له ، وأقدر عليه ، وأن يقضي عني حقك ، وجليل منتك ، فإن ذلك بيده ، وهو القادر عليه» .

٨ ـ الفتنة بالجزيرة ـ الشامية ـ

حملت سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة (١٧٨هـ) في جملة ما حملته من الأحداث ، ظهور حركة تمرد في الجزيرة الشامية . فقد أعلن (الوليد بن طريف التغلبي) ثورته بالجزيرة ، وقتل عامل الرشيد (ابراهيم بن خازم بن خزيمة) في مدينة نصيبين . ثم قويت شوكة الوليد فدخل إلى أرمينية وحصر مدينة (خلاط) عشرين يوماً ، فافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفاً . ثم سار إلى أذربيجان ، ثم إلى حلوان وأرض السواد ، ثم عبر إلى غرب دجلة ، وقصد مدينة (بلد) فافتدوا منه بمائة ألف ، وعاث في أرض الجزيرة . فسير إليه الرشيد جيشاً بقيادة (**يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني ـ وهو ابن أخي معن بن زائدة**) فقال الوليد[1] :

ستعلم يا يزيد إذا التقينا ... بشط الزاب أي فتى يكون

فجعل يزيد يخاتله ويماكره ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد ، فقالوا للرشيد : « إنما يتجافى يزيد عن الوليد للرحم لأنهما

---

(١) كان الوليد شاعراً فارساً ، وكانت أخته (ليلى بنت طريف) فارسة شاعرة ، وقد اشتهر عنها أنها لمّا قتل أخوها الوليد صبحت قومها وقد لبست عليها الدرع واستعدت للقتال ، فجعلت تحمل على الناس ، فعرفت ، فقال يزيد (دعوها) ثم خرج اليها فضرب بالرمح قطاة فرسها، ثم قال لها : « اغربي عزب الله عليك فقد فضحت العشيرة » فاستحيت وانصرفت وهي تقول ترثي الوليد (الكامل في التاريخ ٩٨/٥) ووفيات الأعيان : =

كلاهما من وائل » وهونوا أمر الوليد ، فكتب إليه الرشيد كتاب مغضب ، وقال له : « ... **لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأقسم بالله ان أخرت مناجزته**

= بتل نهاكى رسم قبر كأنه
على جبل فوق الجبال منيف
تضمن مجداً عد ملياً وسؤددا
وهمة مقدام ورأي حصيف
فيا شجر الخابور ما لك مورقاً
كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى
ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم
معاودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم
مقاماً على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوماً لورد كريهة
من السرد في خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح
وسمر القنا ينكرنها بأنوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فان مات لا يرضى الندا بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا
فديناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه
شجا لعدو أو نجا لضعيف
ألا يا لقومي للحمام وللبلى
وللأرض همت بعده برجوف =

لأوجهن إليك من يحمل رأسك . . » .

التقى الوليد وقواته بجيش يزيد يوم خميس في شهر رمضان (سنة ١٧٩هـ) ولقي يزيد جهداً ، وأصابه عطش شديد ـ من الصوم ـ حتى أنه رمى بخاتمه في فمه وجعل يلوكه ويقول : « **اللهم إنها شدة فاسترها** » وقال لأصحابه : « **فداكم أبي وأمي ، انما هي الخوارج ولهم حملة فاثبتوا ، فاذا انقضت حملتهم فاحملوا عليهم ، فانهم إذا انهزموا لم يرجعوا** » ، فكان كما قال . وحمل الوليد وقواته حملة شديدة ، فثبت يزيد ومن معه من عشيرته ، ثم حمل عليهم فانكشفوا . وكان أسد بن يزيد يقاتل إلى جانب أبيه ، وكان شبيهاً به شبهاً كبيراً لا يفرق أو يميز بينهما إلا أثر ضربة في وجه يزيد تأخذ من قصاص شعره منحرفة على جبهته . فكان أسد يتمنى أثر مثل تلك الضربة ، فهوت إليه ضربة فأخرج وجهه من الترس فأصابته في ذلك الموضع ، وقيل أنها لوحظت أو رسمت على ضربة أبيه ما عدتها أو

= ألا يا لقومي للنوائب والردى
ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى
وللشمس لما أزمعت بكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه
إلى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحشى حيث أضمرت
فتى كان للمعروف غير عيوف
فان يك أرداه يزيد بن مزيد
فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفاً فانني
أرى الموت وقاعاً بكل شريف

تجاوزتها . واتبع يزيد خصمه الوليد بن طريف وطارده حتى قتله[1] وانتهت المعركة بعد قتال شديد .

لم يعمر يزيد بعد ذلك طويلاً ، فقد توفي سنة (١٨٥ هـ) بمدينة برذعة ، وكان يزيد ممدحاً جواداً كريماً شجاعاً ، واكثر الشعراء مراثيه . وكان مما رثي به يزيد قصيدة لأبي محمد التميمي . وكان الرشيد إذا سمع هذه المرثية بكى ، وكان يستجيدها ويستحسنها ، ومنها[2] :

أحقاً أنه أودى يزيد
تبين أيها الناعي المشيد
أتدري من نعيت وكيف فاهت
به شفتاك كان بها الصعيد
أحامي المجد والاسلام أودى
فما للأرض ويحك لا تميد
تأمل هل ترى الاسلام مالت
دعائمه وهل شاب الوليد
وهل مالت سيوف بني نزار
وهل وضعت عن الخيل اللبود
وهل تسقى البلاد عشار مزن
بدرتها وهل يخضر عود

(١) وفي ذلك قال شاعر (ابن الاثير ٥/٩٨) ووفيات الأعيان ـ ابن خلكان (ترجمة يزيد) .
وائل بعضهم يقتل بعضاً لا يفل الحديد إلا الحديدا
(٢) ابن الأثير ٥/ ١١١ .

أما هدت لمصرعه نزار
بلى وتقوض المجد المشيد
وحل ضريحه إذا حل فيه
طريف المجد والحب التليد
أما والله ما تنفك عيني
عليك بدمعها أبداً تجود
فان تجمد دموع لئيم قوم
فليس لدمع ذي حسب جمود
أبعد يزيد تختزن البواكي
دموعاً أو يصان لها خدود
لتبك قبة الإسلام لما
وهت أطنابها ووهى العمود
ويبكك شاعر لم يبق دهر
له نسباً وقد كسد القصيد
فمن يدعو الامام لكل خطب
ينوب وكل معضلة تؤود
ومن يحمي الخميس إذا تعايا
بحيلة نفسه البطل النجيد
ألم تعجب له أن امنايا
فتكن به وهن له جنود
قصدن له وكن يحدن عنه
إذا ما الحرب شب لها وقود
لقد عزى ربيعة أن يوماً
عليها مثل يومك لا يعود

٩ ـ الفتنة في أفريقيـــة

كان الرشيد قد استخدم (**يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ابن أبي صفرة**) لولاية أفريقية ، فأحسن إدارتها ، وضبط أمورها ، فسكنت أفريقية وأمنت لأن يزيد أكثر القتل في الخوارج ، فذلوا واستكانوا . وتوفي يزيد ، فاستدعى الرشيد (**روح بن حاتم بن قبيصة**) أخا يزيد ، وقال له : « أحسن الله عزاءك في أخيك ، وقد وليتك مكانه لتحفظ صنائعه ومواليه »[1] . وسار روح إلى أفريقية فوصلها سنة واحد وسبعين ومائة (١٧١هـ) وأحسن إدارة أمورها ، غير أن المنية وافته سراعاً . فاستعمل الرشيد بعده (حبيب بن نصر المهلبي ـ سنة ١٧٤هـ) حتى إذا ما كانت سنة (١٧٧هـ) استعمل الرشيد على أفريقية (**الفضل بن روح بن حاتم**) فسار الفضل إلى

---

(١) جاء في ابن الاثير ٥/٨٥ ما يلي : « كان المنصور قد استعمل يزيد بن حاتم على افريقية ، واستعمل أخاه روحاً على السند ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ! لقد باعدت ما بين قبريهما . فتوفي يزيد بالقيروان سنة ١٧١هـ ، ثم وليها روح فتوفي بها سنة ١٧٤هـ ودفن إلى جانب أخيه يزيد . وكان روح أشهر بالشرق من يزيد ، ويزيد أشهر بالغرب من روح لطول مدة ولايته ، وكثرة خروجه فيها والخارجين عليه .

أفريقية ، واستعمل على مدينة تونس ابن أخيه (**المغيرة بن بشر بن روح**) وكان المغيرة يفتقر للكفاءة والخبـرة ، فاستخف **بـالجند** ، وأساء السيرة معهم فـأوحشهم وذلك بسبب ميلهم الى (حبيب بن نصر) ـ الوالي السـابق ـ . فاجتمـع من بتونس وكتبـوا إلى الفضل يستعفون من ابن أخيه ، فلم يجبهم على كتابهم ، فاجتمعوا على ترك طاعته ، فقال لهم قـائد من الخـراسانيـة يقال لـه (محمد بن الفارسي) : « **كل جماعة لا رئيس لهـا فهي إلى الهلاك أقـرب ، فانظروا رجلاً يدبر أمركم** » قالوا : صدقت . فاتفقوا على تقديم قائد منهم يقال له : (**عبد الله بن الجارود ـ يعرف بعبدويه الأنباري ـ**) فقـدموه عليهم وبـايعوه على السمـع والطاعـة ، وأخرجـوا المغيرة عنهم ، وكتبوا إلى الفضل يقولون : « **إنا لم نخرج يداً عن طاعته ، ولكنه أساء السيرة ، فأخرجناه ، فول علينا من نرضاه** » .

استجاب الفضل لطلب أهل تونس ، فاستعمل ابن عمه (عبد الله بن يزيد بن حـاتم) وسيره اليهم . فلمـا كان على مـرحلة من تونس ، أرسل إليه ابن الجارود جماعة لينظروا في أي شيء قدم ، وأوصاهـم بألا يفعلوا شيئاً ، أو إحداث أمـر ، إلا بأمـره . فساروا إليه ، وقال بعضهـم لبعض : « **إن الفضل يخدعكم بولاية هذا ، ثم ينتقم منكم بإخراجكم أخاه** » . وقاموا بالهجوم على (عبد الله بن يزيد) فقتلوه ، وأخذوا من كان معه من القادة باعتبارهـم أسـرى ، فاضطر حينئذ (عبد الله بن الجارود) ومن معه إلى القيام والجد في إزالة الفضل . وتولى ابن الفارسي الأمر وصار يكتب إلى كل قائـد بأفريقية ومتولي مدينة يقول له : « **إنا نظرنا في صنيع الفضل في بلاد أمير المؤمنين وسوء سيرته ، فلم يسعنا إلا الخروج عليه لنخرجه عنا**

ثم نظرنا فلم نجد أحداً أولى بنصيحة أمير المؤمنين لبعد صوته وعطفه على جنده منك ، فرأينا أن نجعل نفوسنا دونك ، فان ظفرنا جعلناك أميرنا ، وكتبنا إلى أمير المؤمنين نسأله ولايتك ، وإن كانت الأخرى ، لم يعلم أحد أننا أردناك. والسلام». فأفسد بهذا كافة الجند على الفضل وكثر الجمع عندهم . فسير إليهم الفضل عسكراً كثيراً فخرجوا إليه فقاتلوه فانهزم عسكره وعاد إلى القيروان منهزماً . وتبعهم أصحاب ابن الجارود فحاصروا القيروان يومهم ذلك، ثم فتح أهل القيروان الأبواب ودخل ابن الجارود وعسكره الى القيروان ، وأخرج الفضل منها ، ووكل به وبمن معه من أهله أن يوصلهم إلى قابس . فساروا يومهم، ثم ردهم ابن الجارود ، وقتل الفضل بن روح بن حاتم . فلما قتل الفضل ، غضب جماعة من الجند ، وثاروا لمقتله ، واجتمعوا على قتال ابن الجارود ، فسير إليهم عسكراً ، فانهزم عسكره . وعاد إليه بعد قتال شديد ، واستولى اولئك الجند على القيروان . وكان ابن الجارود بمدينة تونس ، فسار إليهم وقد تفرقوا بعد دخول القيروان . فوصل اليهم ابن الجارود ، فلقوه ، واقتتلوا ، فهزمهم ابن الجارود ، وقتل جماعة من أعيانهم ، فانهزموا ، فلحقوا بالاربس ، وقدموا عليهم (العلاء بن سعيد) الذي كان والياً على بلاد الزاب ، وساروا إلى القيروان .

عندما علم الرشيد بما صنعه ابن الجارود ، وإفساده أفريقية ، وجه (**هرثمة بن أعين**) ومعه (**يحيى بن موسى**) لما كان له من مكانة عند أهل خراسان . وأمر (يحيى) بأن يتقدم إلى ابن الجارود ، وأن يحاول استمالته لمعاودة الطاعة قبل وصول (هرثمة) . فقدم يحيى إلى القيروان ، وتصادف وصوله مع وصول العلاء ومن معه ، فقام

(يحيى) بتنفيذ الأمر ، وأجرى مفاوضات مستفيضة مع ابن الجارود ، ودفع إليه كتاب الرشيد ، فقال ابن الجارود : « **أنا على السمع والطاعة ، وقد قرب مني العلاء بن سعيد ، ومعه البربر ، فان تركت القيروان وثب البربر فملكوها ، فأكون قد ضيعت بلاد أمير المؤمنين ، ولكني أخرج إلى العلاء ، فان ظفر بي فشأنكم والثغور ، وإن ظفرت به انتظرت قدوم هرثمة ، فأسلم البلاد إليه وأسير إلى أمير المؤمنين** » . وكان قصده الخداع والتضليل ، فان ظفر بالعلاء منع هرثمة عن البلاد . وقد عرف يحيى بن موسى ذلك ، فاختلى (بابن الفارسي) وعاتبه على ترك الطاعة ، فاعتذر ، وحلف أنه عليها ، وبذل من نفسه المساعدة على (ابن الجارود) فسعى ابن الفارسي في إفساد حاله ، واستمال جماعة من أجناده فأجابوه وكثر جمعه وخرج إلى قتال ابن الجارود . فقال ابن الجارود لرجل من أصحابه اسمه (طالب) : « **إذا تواقفنا فانني سأدعو ابن الفارسي لأعاتبه ، فاقصده أنت وهو غافل ، فاقتله** » فأجابه طالب إلى ذلك ، وتواقف العسكران ، ودعا ابن الجارود (محمد بن الفارسي) وكلمه ، وحمل طالب عليه وهو غافل فقتله وانهزم أصحابه ، وتوجه يحيى بن موسى إلى (هرثمة) بطرابلس . وأما (العلاء بن سعيد) فانه لما علم الناس بقرب هرثمة منهم ، كثر جمعه ، وأقبلوا إليه من كل ناحية ، وسار إلى ابن الجارود ، فعلم ابن الجارود أنه لا قوة له به ، فكتب إلى (يحيى بن موسى) يستدعيه ليسلم إليه القيروان ، فسار إليه في جند طرابلس ، فلما وصل قابساً تلقاه عامة الجند ، وخرج ابن الجارود من القيروان . وأقبل العلاء بن سعيد ويحيى بن موسى يستبقان إلى القيروان كل منهما يريد أن يكون الذكر له ، فسبقه العلاء ودخلها وقتل جماعة من أصحاب ابن الجارود ، وسار إلى هرثمة .

وسار ابن الجارود أيضاً إلى هرثمة ، فسيره هرثمة إلى الرشيد وكتب إليه يعلمه أن العلاء كان سبب خروجه . فكتب الرشيد يأمره بإرسال العلاء إليه فسيره ، فلما وصل لقيه وأكرمه وأجزل له الهدايا والخلع . وأما ابن الجارود فانه اعتقل ببغداد . وسار هرثمة إلى القيروان ، فأمن الناس ، وسكنهم ، وبنى القصر الكبير بالمنستير ، وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر . وكان (**ابراهيم بن الأغلب**) بولاية الزاب ، فأكثر الهدية إلى هرثمة ولاطفه ، فولاه هرثمة ناحية من الزاب ، فحسن أثره فيها ، ثم إن (عياض بن وهب الهواري) و (كليب بن جميع الكلبي) جمعا جموعاً وأرادا قتال هرثمة ، فسير إليهما يحيى بن موسى في جيش كثير ففرق جموعهما وقتل كثيراً من أصحابهما ، وعاد إلى القيروان . ولما رأى هرثمة ما بإفريقية من الإختلاف ، واصل كتبه إلى الرشيد يستعفي ، فأمره بالقدوم عليه إلى العراق ، واستعمل على إفريقية (**محمد بن مقاتل بن حكيم العكي - سنة ١٨١هـ -**) وكان محمد هذا رضيع الرشيد ، فقدم القيروان فتسلمها ، وعاد هرثمة إلى الرشيد . فلما استقر (محمد بن مقاتل) انتهج نهجاً خاطئاً ، فاختلف الجند عليه ، واتفقوا على تقديم (**مخلد بن مرة الأزدي**) واجتمع كثير من الجند والبربر وغيرهم ، فسير إليه (محمد بن مقاتل) جيشاً ، فقاتلوه ، فانهزم مخلد ، واختفى في مسجد فأخذ وذبح .

وخرج عليه بتونس (**تمام بن تميم التميمي**) في جمع كثير ، وساروا إلى القيروان ، وخرج إليه (محمد بن مقاتل العكي) في الذين معه ، فاقتتلوا بمنية الخيل ، فانهزم (ابن العكي) إلى القيروان . وسار تمام فدخل القيروان ، وأمَّن (ابن العكي) على أن

يخرج عن إفريقية ، فسار إلى طرابلس ، فجمع (ابراهيم بن الأغلب التميمي) جمعاً كثيراً ، وسار إلى القيروان ، منكراً لما فعله (تمام) فلما قاربها سار عنها إلى تونس ، ودخل ابراهيم القيروان ، وكتب إلى (محمد بن مقاتل) يعلمه الخبر ، ويستدعيه إلى عمله ، فعاد إلى القيروان ، فثقل ذلك على أهل البلد ، وبلغ الخبر إلى تمام ، فجمع جمعاً وسار إلى القيروان ، ظناً منه أن الناس يكرهون محمداً ويساعدونه عليه . فلما وصل قال ابن الأغلب لمحمد : « **إن تماماً انهزم مني ، وأنا في قلة ، فلما وصلت إلى البلاد تجدد له طمع لعلمه أن الجند يخذلونك . والرأي أن أسير أنا ومن معي من أصحابي فنقاتله** » ففعل ذلك ، وسار إليه فقاتله ، فانهزم تمام ، وقتل جماعة من أصحابه ولحق بمدينة تونس ، فسار ابراهيم بن الأغلب إليه ليحاصره ، فطلب منه الأمان ، فأمنه .

استقر الأمر ببلاد أفريقية لمحمد بن مقاتل ، وأطاعه تمام ، غير أن أهل البلاد كرهوا ذلك ، وحملوا (ابراهيم بن الأغلب) على أن كتب إلى الرشيد، يطلب منه ولاية أفريقية، فكتب إليه في ذلك، وكان على ديار مصر كل سنة مائة ألف دينار تحمل إلى إفريقية معونة لها ، فنزل ابراهيم عن ذلك ، ووعد بأن يحمل كل سنة أربعين ألف دينار . فأحضر الرشيد ثقاته ، واستشارهم فيمن يوليه إفريقية ، وذكر لهم كراهة أهلها ولاية (محمد بن مقاتل) **فأشار هرثمة بن أعين بتعيين ابراهيم بن الأغلب** : « **وذكر له ما راه من عقله ودينه وكفايته ، وأنه قام بحفظ إفريقية على ابن مقاتل** » فولاه الرشيد سنة ١٨٤هـ ، فانقمع الشر وضبط الأمر . وسير تماماً وكل من سبق له أن أعلن تمرده إلى الرشيد ، فسكنت البلاد ، وابتنى مدينة سماها (العباسية) بقرب

القيروان ، وانتقل إليها بأهله وعبيده . وخرج عليه سنة ست وثمانين ومائة رجل من أبناء العرب بمدينة تونس (اسمه حمديس) فنزع السواد ، وكثر جمعه ، فبعث اليه ابن الأغلب جيشاً كبيراً بقيادة (**عمران بن مخلد**) وأمره أن لا يبقي على أحد منهم إن ظفر بهم . فسار عمران ، والتقوا واقتتلوا ، وصار أصحاب حمديس يصرخون : « **بغداذ بغداذ** » وصبر الفريقان فانهزم حمديس ومن معه ، وأخذهم السيف ، فقتل منهم عشرة آلاف رجل ، ودخل عمران تونس . ثم بلغ ابن الأغلب أن (إدريس بن إدريس العلوي) قد كثر جمعه بأقاصي المغرب ، فأراد قصده ، فنهاه أصحابه ، وقالوا له : « **اتركه ما تركك** » فأعمل الحيلة ، وكاتب القيم بأمره من المغاربة ، واسمه (بهلول بن عبد الواحد) وأهدى إليه ، ولم يزل به حتى فارق إدريس وأطاع ابراهيم . وتفرق جمع إدريس ، فكتب إلى ابراهيم يستعطفه ، ويسأله الكف عن ناحيته ، ويذكر له قرابته من رسول الله ﷺ . فكف عنه .

أصبح (**عمران بن مخلد**) بعد انتصاره هذا ، من بطانة ابراهيم بن الأغلب ، ونزل معه في قصره . وركب يوماً مع ابراهيم ، وجعل يحدثه ، فلم يستوعب ابراهيم من الحديث شيئاً بسبب انشغال فكره بما كان يهمه من أمور دولته ، مما أغضب (عمران) واعتبر ذلك استهانة به ، ففارق ابراهيم ، وجمع جمعاً كبيراً ، وأعلن الثورة ، ونزل بين القيروان والعباسية ، وصارت القيروان وأكثر بلاد أفريقية معه . فعمل ابراهيم على الامتناع بحصون العباسية ، وحفر الخنادق حول عاصمته (العباسية) ودامت الحرب بينهما سنة كاملة . وعلم الرشيد ، فأرسل إلى إبراهيم خزانة من المال ، فلما وصل المال إلى

إبراهيم أمر منادياً ينادي : « **من كان من جند أمير المؤمنين فليحضر لأخذ العطاء** » ففارق عمران أصحابه ، وتفرقوا عنه . ومنحهم إبراهيم الأمان ، وتحول الموقف لمصلحة إبراهيم فشن هجوماً قوياً مزق به ما بقي من جمع (عمران) ، وقلع أبواب القيروان ، وهدم في سورها ، وهرب (عمران) حتى لحق بالزاب ، وأقام فيها ، وسكن الشر بأفريقية ، وأمن الناس .

توفي (إبراهيم بن الأغلب) سنة ١٩٦هـ ، فولي بعده إبنه عبد الله ، ومنح عبد الله الأمان لعمران بن مخلد ، فحضر عنده وأسكنه معه ، فقيل لعبد الله : « **إن هذا ثار بأبيك ، ولا نأمنه عليك** » فقتله ، واستقامت الأمور ، وعمرت البلاد .

انصرف إبراهيم بن الأغلب لبناء المجتمع العربي ـ الإسلامي في إفريقية والمغرب ، وأرسى قواعد العدل بتنصيب مسؤول أطلق عليه (صاحب المظالم) . وازدهرت إفريقية ، فعرفت حركة عمرانية مذهلة ونشاطاً اقتصادياً كبيراً (حتى بلغ خراج الدولة ألف ألف درهم ـ أو ما يعادل ثمانية آلاف كيلو من الذهب ـ) ، ومهد إبراهيم بن الأغلب بذلك لقيام دولة الأغالبة . وجاءت رسل أمبراطور الغرب شارلمان (١٢٥ ـ ١٩٩هـ / ٧٤٢ ـ ٨١٤م) مهنئة بالملك ملتمسة من إبراهيم أن يعيد للمسيحية بقايا موتاها وآثارهم ومخلفاتهم ، فأنزل إبراهيم أفراد السفارة بجوار مدينة القيروان ، واحتفى بهم احتفالاً منعدم النظير ، وأجابهم إلى مطلبهم ، فرجعوا مبتهجين ، ثم أرسل إبراهيم سفارة من لدنه لرد زيارة شارلمان . وكان من أهم نتائج جهد ابن الأغلب وجهاده ، رفع راية الجهاد في سبيل الله خفاقة في المغرب العربي ـ الإسلامي ، وضم صقلية وبعض جزائر البحر لدولة المسلمين .

١٠ ـ البرامكة
وسيطرتهم على الدولة

عهد الرشيد إلى وزرائه في تصريف شؤون الدولة كلها تقريباً طوال السنوات الأولى من حكمه . والواقع أن منصب الوزارة بقي منذ عهد غير قصير وقفاً على آل برمك ، المتحدرين من أسرة كهنوت متقدمة في (نوبهار) إحدى الصوامع البوذية في (بلخ) . وهناك روايات فارسية تشير إلى أن هذه الأسرة كانت من كهنة الفرس عبدة النار . وكان أبو العباس السفاح قد استوزر خالد بن برمك بعد مقتل أبي سلمة الخلال ، حتى إذا كانت خلافة المنصور ، احتفظ خالد بالإشراف على الشؤون المالية ، ولمع اسمه بشكل خاص في بناء بغداد ، كما كان في الوقت ذاته جندياً بارعاً ، خدم في أيام الشباب تحت لواء أبي مسلم الخراساني ، وقد استطاع خلال ولايته لطبرستان أن يقضي على آخر إمارة فارسية في جبل دُماوند (١٤٨ ـ ١٥٢هـ / ٧٦٥ ـ ٧٦٩م) كما اشترك في الحروب ضد الروم ـ البيزنطيين ، وهو في سن متقدمة ، وقد أفاد من ذلك فجمع ثروة طائلة ، حملت المنصور قبل وفاته على أن يغرمه مبلغ ثلاثة ملايين درهم ، وأن يعيدها الى بيت مال المسلمين ، ثم منحه إمارة الموصل التي كانت

تعد، لقربها من الأكراد الآخذين بأسباب الشغب والفتنة ، منصباً ذا أهمية خاصة . وفي الوقت ذاته ، تم تعيين ابنه (يحيى بن خالد) ولاية أذربيجان، حتى إذا كانت خلافة المهدي، استدعي إلى بغداد، وفي سنة (١٦١هـ / ٧٧٧م) وعندما أسندت إلى هرون الرشيد إمارة الولايات الغربية بالإضافة إلى أرمينية وأذربيجان ، خطا يحيى خطوة متقدمة نحو مركز السلطة ، إذ اصطنعه الرشيد رئيساً لأمناء سره . ولقد سبقت الإشارة إلى ما أظهره يحيى من إخلاص للرشيد يوم حاول الهادي حمل أخيه الرشيد على التنازل عن ولاية العهد ، مما جعل يحيى يتعرض لغضب الهادي ، حتى إذا ما انتقلت الخلافة للرشيد ، كان أول ما فعله هو تقليد (**يحيى بن خالد**) الوزارة ، ودفع إليه خاتمه ، وفي السنة التالية (١٧١هـ) دفع إليه خاتم خراسان فاجتمعت ليحيى الوزارتان ـ إذ كانت خراسان وولايتها تعادل الوزارة الثانية في الدولة ـ . وهكذا حكم هو وإبناه الفضل وجعفر ، الدولة الاسلامية حكماً مطلقاً طوال ثمانية عشر عاماً تقريباً (١٧٠ ـ ١٨٨هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٣م) ولو أنه خضع في السنوات الثلاث الأولى من وزارته للرقابة الشديدة لأم الرشيد ـ الخيزران ـ .

تولى (**الفضل بن يحيى**) أمور خراسان ، وكان أثيراً عند أبيه ، فمضى إلى خراسان سنة ١٧٨هـ / ٧٩٤م ، فضبط أمورها ، وبنى بها المساجد والرباطات ، وغزا ما وراء النهر ، فخرج إليه (خاراخره) ملك أشروسنة ، وكان ممتنعاً[1] **واتخذ بخراسان جنداً**

---

(١) كان مروان بن أبي حفصة قد أنشد الفضل في معسكره قبل خروجه إلى خراسان :

ألم تر أن الجودَ من لدن آدم
تحدَّرَ حتى صار في راحة الفضل =

من العجم سماهم (العباسية) وجعل ولاءهم له ، وكانت عدتهم تبلغ خمسمائة ألف رجل وأرسل منهم إلى بغداد عشرين ألف رجل ، فسموا ببغداد (الكرنبيّة) وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم[1] . وأقبل الشعراء يمتدحون الفضل بن يحيى ،

= إذا ما أبو العباس راحت سماؤه
فيا لك من هطْل ويا لك مِنْ وَبْل
إذا أمُّ طفل راعها جوع طفلها
دَعَتهُ باسم الفضل فاستعصم الطفل
ليحيا بك الإسلام إنك عِزُّهُ
وإنك من قوم صغيرُهُمُ كهلُ

(١) وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة (تاريخ الطبري ٨/٢٥٧) :

ما الفضلُ إلا شهابٌ لا أفول له
عند الحروب إذا ما تأفُلُ الشُّهُبُ
حام على ملكِ قوم عَزَّ سهمهم
من الوراثة في أيديهم سببُ
أمست يَدٌ لبني ساقي الحجيج بها
كتائبٌ ما لها في غيرهم أَرَبُ
كتائبٌ لبني العباس قد عرفت
ما ألف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين في عدادهم
من الألوف التي أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم
أولى بأحمَدَ في الفرقان إنْ نسبوا
إن الجوادَ ابن يحيى الفضل لا ورقٌ
يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له مذ شد مِئْزَرَهُ
إلا تمول أقوام بما يَهَبُ =

ويصيبون من عطائه(١) في جملة ما كان يصيبه أعوانه ورجاله وأصحابه

= كم غاية في الندى والبأس أحرزها
للطالبينَ مداها دونها تعب
يُعطي اللُّهى حين لا يُعطي الجوادُ ولا
ينبو إذا سُلَّت الهنديَّةُ القُضُب
ولا الرضا والرضا للّه غايتهُ
إلى سوى الحقّ يدعوهُ ولا الغضبُ
قد فاضَ عُرفُك حتى ما يُعادلَهُ
غيثٌ مغيثٌ ولا بحرٌ له حَدَبُ

(١) قال محمد بن العباس ممتدحاً الفضل :

تخيرتُ للمدح ابن يحيى بن خالد
فحسبي ولم أظلِمْ بأن أتخيرا
له عادةٌ أن يبسُطَ العدلَ والندى
لمن ساس من قحطانَ أو من تَنَزَرا
إلى المنبر الشرقي سارَ ولم يزل
له والدٌ يعلو سريراً ومنبرا
يُعَدُّ ويحيى البرمكي ولا يُرى
لدى الدَّهرِ إلا قائداً أو مْوقّرا

ومدحه سلْم الخاسر ، فقال :

وكيف تخافُ من بؤس بدارٍ
تكنفها البرامكةُ البحورُ
وقومٌ منهم الفضل بن يحيى
نَفيرٌ ما يوازِنُهُ نفيرُ
له يومان : يوم ندىً وبأسٍ
كأن الدهر بينهما أسيرُ
إذا ما البرمكيُّ غدا ابن عشرٍ
فَهِمَّتُهُ وزيرٌ أو أميرُ

من عطاء . وكان (محمد بن العباس) في جملة من قصد الفضل ، فأمر له بمائة ألف درهم وكساه وحمله على بغلة ، ثم عاد فأكرمه حتى بلغ ما أصابه في مرافقته للفضل سبعمائة ألف درهم .

ذكر أن (ابراهيم بن جبريل) خرج مع الفضل إلى خراسان ، على غير رغبة منه ، مما أغضب الفضل عليه ، حتى إذا ما وصل إلى خراسان ، استدعاه الفضل بعدما أغفله حيناً ، وأقبل ابراهيم بن جبريل على الفضل وقد تملكه الفزع ، فلما صار بين يديه سلّم ، فلم يرد عليه الفضل وأهمله لفترة قصيرة ، ثم التفت إليه ، فلاحظ ما أصابه من الفزع ، فاستوى جالساً وكان مضطجعاً ، وقال له : « **ليفرخ روعك يا إبراهيم ! فإن قدرتي عليك تمنعني منك** » . ثم عقد له على ولاية سجستان ، فلما حمل إبراهيم خراج سجستان إلى الفضل ، وهبه له وزاده خمسمائة ألف درهم . وكان إبراهيم على شُرطه وحرسه ، فوجهه إلى كابُل ، فافتتحها وغنم غنائم كثيرة ، فكان مما أصابه من المال سبعة آلاف ألف درهم ، وبلغ ما جمعه من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم . فلما قدم بغداد ، وبنى داره في (البغيين) استزار الفضل ليريه نعمته عليه ، وأعد له الهدايا والطرف وآنية الذهب والفضة ، وأمر بوضع الأربعة الآلاف ألف في ناحية من الدار . فلما قعد الفضل بن يحيى قدم إليه الهدايا والطرف ، فأبى أن يقبل منها شيئاً ، وقال له : « لم آتك لأسلبك » فقال ابراهيم : « إنها نعمتك أيها الأمير ! » قال : « ولك عندنا مزيد » ، ولم يأخذ من جميع ذلك إلا سوطاً (سجزياً) وقال : « هذا من آلة الفرسان » فقال له إبراهيم : « هذا المال من مال الخراج » فقال له الفضل : هو لك ، فأعاد عليه . فقال الفضل : « أما لك بيت يسعه ! » فسوغه ذلك .

لما قدم الفضل بن يحيى من خراسان ، خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله ، وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف ، فجعل يصل الرجل بالألف ألف ، وبالخمسمائة ألف[١] ودخل حفص بن مسلم (أخو رزام بن مسلم ـ مولى خالد بن عبد الله القسري ـ) على الفضل بن يحيى ، عندما وصل من خراسان ، فرأى الفضل وبين يديه بدر ـ أكياس من الأموال ـ تفرق بخواتيمها ، فما فضت بدرة منها[٢] .

---

(١) وقف مروان بن أبي حفصة مادحاً فقال :

حمدنا الذي أدّى ابنُ يحيى فأصبحت ... بِمقْدَمِهِ تجري لنا الطيرُ أسعدا
وما هجعت حتى رأتهُ عيوننا ... وما زلنَ حتى أبَ بالدمع حُشَّدا
لِتَمدْ صَيحَتنا خيلُهُ ورجالُه ... بأروع بَذَّ الناس بأساً وسؤددا
نفى عن خراسانَ العَدُوَّ كما نفى ... ضحى الصبح جلباب الدجى فتعرَّدا
لقد راع من أمسى بمرو مسيره ... إلينا، وقالوا شعبنا قد تبددا
على حين ألقى قفل كل ظلامة ... وأطلق بالعفو الأسير المقيدا
وأفشى بلا مَنٍّ من العدل فيهم ... أيادِيَ عُرف باقيات وعودا
فأذهب روعات المخاوفِ عنهُمُ ... وأصدر باغي الأمن فيهم وأوردا
وأجدى على الأيتام فيهم بعرفه ... فكان من الآباء أحنى وأعودا
إذا الناس راموا غاية الفضل في الندى ... وفي البأس ألفوها من النجم أبعدا
سما صاعداً بالفضل يحيى وخالدٌ ... إلى كل أمر كان أسنى وأمجدا
يلين لمن أعطى الخليفة طاعة ... ويسقي دمَ العاصي الحسام المهندا
أذلّت مع الشرك النفاق سيوفُهُ ... وكانت لأهل الدين عزاً مؤبدا
وشدَّ القُوى من بيعةِ المصطفى الذي ... به الله أعطى كل خير وسددا
أبَحْتَ جبال الكابُلي ولم تَدَع ... بهنَّ لنيرانِ الضلالةِ مُوقدا
فأطلعتها خيلاً وطئن جموعَهُ ... قتيلاً ومأسوراً وفلاً مشردا
وعادت على ابن البرم نعماك بعدما ... تحوَّبَ مخذولاً يرى الموتَ مفردا

(٢) وفي ذلك قال حفص بن مسلم : =

كان ذلك بعضاً من سيرة الفضل ، أما ما كان من **جعفر بن يحيى** فإنه كان يفضل البقاء في بغداد إلى جانب الرشيد الذي كان يقدمه ويؤثره ، تاركاً أمر الولايات التي عهد إليه بإدارتها ، إلى أناس ممن يثق بهم . وشعر الرشيد بتعاظم قوة البرامكة ، فأخذ في العمل على الحد من سلطان جعفر ، وحول جزءاً من صلاحياته إلى خصمه ومنافسه (**الفضل بن الربيع**) .

استشارت سلطات البرامكة بعض الصلحاء الأتقياء مثل (محمد بن الليث) الذي رفع رسالة إلى الرشيد وعظه فيها ، وحذره من يحيى بن خالد ، وكان مما ورد في رسالته : « . . . إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه ، فسألك عما عملت في عباده وبلاده ؟ فقلت : يا رب إني استكفيت يحيى أمور عبادك ! أتراك تحتج بحجة يرضى بها ؟ » . فدعا الرشيد يحيى ، وقد عرف أن يحيى قد علم بأمر الرسالة ، وسأله : « هل تعرف محمد بن الليث ؟ » فأجاب يحيى : « نعم ! إنه رجل متهم على الاسلام » فأمر الرشيد باحتجاز حرية (محمد بن الليث) في (المطبق) ، غير أن الرشيد لم يغفل هذا التحذير ، ولم ينس صاحبه[1] فكان ذلك بداية تغير الرشيد على البرامكة .

كان أول ما فعله الرشيد ، عندما أوقع بالبرامكة ، أن أصدر

= كفى الله بالفضل بن يحيى بن خالدٍ
وجُود يديه بخل كلِّ بخيلِ

(١) تاريخ الطبري ٨/٢٨٨ .

أمره باخراج محمد بن الليث من السجن ، واستدعاه اليه ، وتحدث معه طويلاً ، ثم قال له : « يا محمد ! أتحبني ؟ » فأجاب محمد : « لا والله يا أمير المؤمنين ! لقد وضعت في رجلي الأكبال ، وحلت بيني وبين العيال ، بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله ، ويحب الإلحاد وأهله ، فكيف أحبك ؟ » فرد الرشيد : « صدقت ! » وأمر بإطلاق سراحه ، ثم عاد فسأله : « يا محمد ! أتحبني ؟ » وعاد محمد للقول : « لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن قد ذهب ما في قلبي ! » . فأمر الرشيد باعطائه مائة ألف درهم ، فأحضرت . وسأل الرشيد من جديد : « يا محمد ! أتحبني ؟ » فرد محمد بقوله : « أما الآن فنعم ، قد أنعمت عليَّ وأحسنت إليَّ » . فقال له الرشيد معقباً : « لقد انتقم الله ممن ظلمك ، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك » .

١١ ـ الرشيد ينكب البرامكة

أخذت السحب السوداء القاتمة في التجمع في سماء البرامكة . لقد دانت لهم دنيا المسلمين ، وتعاظمت سلطتهم حتى باتت تتهدد نفوذ الخليفة ذاته ، ولم يكن باستطاعة الرشيد أن يصمت طويلاً على هذا التحدي .

وجاءت الأحداث المتتالية ، لتثير كوامن غضب الرشيد .

١ ـ عندما ابتنى جعفر بن يحيى داره جعلها في غاية الأبهة ، وجاءه ابراهيم بن المهدي مهنئاً ، فباداه جعفر بقوله : «أما تعجب من منصور بن زياد ؟ فسألته هل ترى في داري عيباً ؟ فقال : نعم ! ليس فيها لبنة ولا صنوبرة ! » . فعقب ابراهيم : « **الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين !** » فقال جعفر : « هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك ، سوى ما عوضني له » وأجابه ابراهيم : « **إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول : إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم ، فأين نفقاته ؟ وأين صلاته ؟ وأين النوائب التي تنوبه ؟ وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك ؟**

وهذه جملة سريعة إلى القلب . والموقف على الحاصل منها صعب » . فرد جعفر بقوله : « إن سمع ، قلت لأمير المؤمنين أن له نعماً على قوم قد كفروها بالستر لها ، أو بإظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي ، فوضعتها في رأس جبل ، ثم قلت للناس : تعالوا فانظروا . . . » .

لم يكن الرشيد عاجزاً عن ابتناء دار أكثر فخامة وأكثر بذخاً مما ابتناه جعفر ، ولم تكن القضية قضية حسد أو غيرة ، إنما هو الشعور بالمنافسة بالقوة وبالمال ، ولم تكن هذه هي الحادثة المثيرة الوحيدة . .

٢ ـ كان الرشيد في غرفته وليس معه إلا طبيبه (بختيشوع بن جبريل) وإذا بيحيى بن خالد يقتحم عليه خلوته ـ وكان يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ، رد عليه الرشيد رداً ضعيفاً ، ثم التفت إلى جبريل وقال : « **يدخل عليك وأنت في منزلك أحدٌ بلا إذنك !** » **فرد جبريل** : « **لا ! ولا يطمع في ذلك** » فقال الرشيد : «**فما بالنا يُدخل علينا بلا إذن !** » فقام يحيى وقال : « يا أمير المؤمنين ! قدمني الله قبلك ! والله ما ابتدأت ذلك الساعة ، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ، ورفع به ذكري ، حتى أن كنت لأدخل وهو في فراشه ، مجرداً حيناً ، وحيناً في بعض إزاره ، وما علمتُ أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، وإذ قد علمت ، فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن ، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك» . فاستحيا الرشيد ـ وكان من أرق الخلفاء وجهاً ، وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه ـ ثم قال : « ما أردتُ ما تكره ، ولكن الناس يقولون !» وخرج يحيى . ثم عاد بعد ذلك ، فقام الغلمان إليه ـ

احتراماً ـ فقال الرشيد لمسرور الخادم : « مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار » . فدخل فلم يقم إليه أحد ، فاربد لونه ، وكان الغلمان والحجاب بعد إذ رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره ، فلا يسقونه ، أو بالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوَ بها مراراً .

لقد كان ذلك مؤشراً ثابتاً على تغير الرشيد ، وغيظه من البرامكة ، ثم جاء حدث اعتبره الرشيد حاسماً ، بسبب ما أكده هذا الحدث من انتهاج البرامكة لسياسة تخالف سياسته ، وتتجاوزها .

٣ ـ كان (**يحيى بن عبد الله ابن حسن**) قد أظهر الخلاف والتمرد ، وأخذ في التطلع إلى الحكم ، فألقى الرشيد القبض عليه ، واحتجزه ، ثم دفعه إلى جعفر بن يحيى ، وأمره بحبسه والتحفظ عليه .

استدعى جعفر ذات يوم إلى مجلسه (يحيى بن عبد الله) وسأله عن أمره واستجوبه ، فقال يحيى : « **اتق الله في أمري ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا أويت محدثاً** » . فرق عليه ، وقال له : « **إذهب حيث شئت من بلاد الله** » فقال يحيى : « وكيف أذهب ، ولا آمن أن أوخذ بعد قليل ، فأرد إليك أو إلى غيرك ! » ، فوجه معه من أداه إلى مأمنه في حُلوان . وعلم وزير الرشيد (الفضل بن الربيع) بالأمر فهاله واستكبره ، وعندما تحقق بنفسه بصحة الأمر ، رفعه إلى الرشيد ، فتظاهر الرشيد بعدم الاهتمام ، وظنها أنها شائعة تفتقر إلى الصحة ، أو أنها في أسوأ الاحتمالات (إعلام يحتاج للتأكد) فقال للفضل : « وما أنت وهذا لا أم لك ! فلعل ذلك عن أمري ! » .

وصل الخبر اليقين إلى الرشيد من غير بحث ولا عناء ، ومن غير تأخر ولا إمهال ، فبينما كان يتحدث الرشيد إلى يحيى بن خالد إذ جاء رجل إلى هرثمة بن أعين ، وطلب مقابلة الرشيد ، فقال الرشيد لهرثمة : « خذ الرجل إليك ، وسله عن خبره » فسأله ، فامتنع الرجل ، وقال : « **إنه سر من أسرار الخليفة !** » ، فأخبر هرثمة الرشيد ، فقال له الرشيد : «**قل له لا يبرح الباب حتى أفرغ له** » . فلما انتصف النهار ، وانصرف الناس ، دعا الرشيد الرجل إليه ، وقال له : « هات ما عندك ! » فقال الرجل : « على أن تؤمنني ! » فرد الرشيد : « **على أن أؤمنك وأحسن إليك** » ، فانحلت عقدة لسان الرجل ، وقال : « **كنت بحلوان ، في خان من خاناتها ، فإذا أنا بيحيى بن عبد الله ابن الحسن ، في دراعة صوف غليظة ، وكساء صوف أخضر غليظ ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل ، ويرحلون إذا رحل ، ويكونون منه بصدد ، يوهمون من يراهم أنهم لا يعرفونه وهم من أعوانه ، ومع كل واحد منهم منشور يأمن به إن تعرض له أحد** ! » وسأله الرشيد : « أوتعرف يحيى ابن عبد الله ؟ » فرد الرجل : « أعرفه قديماً ! وذلك الذي حقق معرفتي به بالأمس ! » فعاد الرشيد للسؤال : « صفه لي ! » فقال الرجل : « مربوع أسمر ، رقيق السمرة ، أجلح ، حسن العينين ، عظيم البطن ! » ، فقال الرشيد : « صدقت ، هو ذاك ، فما سمعته يقول ؟ » فرد الرجل : « ما سمعته يقول شيئاً ، غير أني رأيته يصلي ، ورأيت غلاماً من غلمانه ، أعرفه قديماً ، جالساً على باب الخان ، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوب غسيل ، فألقاه في عنقه ونزع جبة الصوف ، فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر ، وأنا أرمقه ، أطال في الأوليين ، وخفف في الأخريين » . فقال الرشيد : « **لله أبوك ، لجاد ما حفظت**

عليه ، نعم تلك صلاة العصر ، وذاك وقتها عند القوم ، أحسن الله جزاءك ، وشكر سعيك ! فمن أنت ؟ » . قال : « أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدولة ، وأصلي من مرو ، ومولدي مدينة السلام ، وفيها منزلي » . وأطرق الرشيد طويلاً ، ثم قال للرجل : « **كيف احتمالك لمكروه ، تمتحن به في طاعتي ؟** » فرد الرجل : « أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين ! » فقال له الرشيد : « ابق بمكانك حتى أرجع » .

دخل الرشيد غرفة كانت وراء ظهره ، ثم عاد ومعه كيس فيه ألفا دينار ، وأعطاه الرجل وهو يقول له « خذ هذه ! ودعني وما أدبر فيك » فأخذها الرجل ، وضم عليها ثيابه ، وصاح الرشيد : « يا غلام ! » فدخل عليه خاقان وحسين - من حجابه - فقال لهما الرشيد : « إصفعا ابن اللخناء ! » فصفعاه نحواً من مائة صفعة ، ثم قال : « أخرجاه إلى من بقي في الدار ، وعمامته في عنقه ، وقولا : هذا جزاء من يسعى بباطنة أمير المؤمنين وأوليائه ! » ففعلا ذلك ، وتحدثوا بخبره ، ولم يعلم بحال الرجل أحد ، ولا بما قاله للرشيد ، حتى انتهى الرشيد من أمر البرامكة[1] .

---

(١) جاء في تاريخ الطبري ٢٩٤/٨ والكامل في التاريخ ١١٤/٥ ، أن سبب هلاك جعفر والبرامكة ما يلي : « كان الرشيد لا يصبر عن جعفر وعن أخته العباسة بنت المهدي ؛ فكان يحضرهما إذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفراً قلة صبره عنه وعنها ، وقال لجعفر : أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي ، وتقدم إليه ألا يمسها ، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته . فزوجها منه على ذلك ، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما . فيثملان من الشراب ، وهما شابان ، فيقوم إليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت غلاماً ، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك ، فوجهت بالمولودمع حواضن =

استدعى الرشيد لمجلسه جعفر بن يحيى ، فلما جاء دعا بالغداء، فأكلا، وجعل الرشيد يلقمه ويحادثه، ثم باغته بسؤاله عندما قال له: «**ماذا فعلت بيحيى بن عبد الله ؟**» فأجاب جعفر «هو بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال» فعقب الرشيد: « بحياتي ! » . فأحجم جعفر ـ وكان من أدق الخلق ذهناً ، وأصحهم فكراً ـ وهجس في نفسه أن الرشيد قد علم بشيء من أمره ، فقال : « لا وحياتك يا سيدي ، ولكن أطلقته ، وعلمت أنه لا حياة به ، ولا مكروه عنده » فقال الرشيد : « **نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسي !** » فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال : « **قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك !** » .

* * *

بات البرامكة وهم يتوجسون شراً، وليس أدل على ذلك، مما قاله يحيى بن خالد وهو أمام الكعبة، فقد حج يحيى سنة سبع وثمانين ومائة للهجرة ـ وهي السنة التي حج فيها الرشيد أيضاً وفيها وقعت النكبة للبرامكة ـ فجعل يحيى يتعلق بأستار الكعبة ويردد : « اللهم

= له من مماليكها إلى مكة ، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون ، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد ، وأخبرته بمكانه ، ومع من هو من جواريها ، وما معه من الحلي الذي كانت زينته به أمه . فلما حج هارون ، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي به من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه ، فلما أحضروا تأكد من الخبر . . . وهذه القصة ضعيفة لتناقضها مع ما هو معروف من سيرة الرشيد ، وحتى لو صحت فانها ليست يقيناً السبب في نكبة البرامكة .

ذنوبي جمة عظيمة لا يحصيها غيرك ، ولا يعرفها سواك . اللهم إن كان رضاك أن تسلبني مالي وولدي فاجعل عقوبتي في الدنيا ، وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري . اللهم الا الفضل » ثم ولى ليمضي ، فلما قرب من باب المسجد ، كر مسرعاً ، ففعل مثل ذلك ، وجعل يقول : « اللهم إنه سمج بمثلي أن يرغب إليك ، ثم يستثني عليك . . . اللهم والفضل » .

أقبل يوم الجمعة ـ آخر يوم من شهر محرم الحرام ـ سنة سبع وثمانين ومائة للهجرة ، وفيه خرج الرشيد إلى الصيد ومعه جعفر بن يحيى ، قد خلا به دون ولاة العهد ، وسار معه وقد وضع يده على عاتقه ، وقبل ذلك ما غلفه بالغالية بيد نفسه ، ولم يزل معه ما يفارقه حتى انصرف مع المغرب ، فلما أراد الدخول ضمه إليه ، وانصرف جعفر إلى منزله ، وانصرف الرشيد إلى حراقته ـ بالأنبار ـ فدخل إليه من باب صاحب الخاصة ، فكلمه في حوائج الناس ، وغيرها من إصلاح الثغور وغزو البحر ، ثم خرج فقال للناس : قد أمر أمير المؤمنين بقضاء حوائجكم . وبعث إلى أبي صالح يحيى بن عبد الرحمن يأمره بإنفاذ ذلك ، حتى ذهب الليل ، فأرسل الرشيد إلى خادمه (مسرور) ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند ، وكلفهما بمهمة خاصة ، فمضى مسرور إلى منزل (جعفر بن يحيى) وطوقه بالحرس ، ودخل عليه وعنده الطبيب بختيشوع بن جبريل ، والمغني الكلوذاني أبو زكار الأعمى[1] وهو في لهوه ، فقال

---

(١) كان المغني أبو زكار الأعمى ينشد : (تاريخ الطبري ٨/٢٩٧) و (ابن الأثير ٥/١١٥) .

فلا تبعد فكل فتى سيأتي   عليه الموت يطرق أو يغادي =

له مسرور : « يـا أبا الفضـل ! الذي جئتُ لـه من ذلك قـد والله طرقك ، أجب أمير المؤمنين ! » فرفع جعفر يديه ، ووقع على رجلي مسرور يقبلهما ، وقال له : « حتى أدخل فأوصي ! » فأجابه مسرور : « أما الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوصِ بما شئت » . فتقدم في وصيته بما أراد ، وأعتق مماليكه ، وجـاءت رسل الـرشيد تستحث مسرور وتستعجله ، فعمل مسرور على اخراج جعفر إخراجاً عنيفاً ، وقاده حتى أتى به المنـزل الذي فيـه الرشيـد ، فحبسه وقيـده بقيد حمار ، وجاء إلى أمير المؤمنين ، فأخبره بأخذ جعفر ومجيئـه به ، فقال له الرشيد وهو في فراشه : « **ائتني برأسه** ! » فتوجه مسرور إلى جعفر ، وأخبره ، فقال جعفر : « يا أبا هاشم ! الله الله ! دافع بأمري حتى أصبـح أؤامـره فيّ ثـانيـة » فعـاد مسـرور إلى أميــر المؤمنين لاستشارته ، فلما سمع حسه ، صاح : « **ائتني برأس جعفر** ! » فعاد مسرور إلى جعفر ، فأخبره ، فقال له جعفر : « عاوده فيّ ثالثة » . فعاد مسرور من جديد ، فلما اقترب من مجلس الرشيد ، قذفه الرشيد بعمود ، وقال صارخاً : « **نفيت من المهدي إن أنت جئتني ولم تأتني برأسه ، لأرسلن إليك من يأتيني برأسك أولاً ، ثم برأسـه آخـراً** » **فخرج مسرور وعاد ومعه رأس جعفر** .

ينتشر الخبر السيء بسرعة أكبر من سرعة انتشار الخير الجيد ، وعلم يحيى بن خالد بمقتـل ابنه ، فقـال له المخبـر : « **قتل أميـر المؤمنين ابنَك جعفراً** » فرد يحيى على الفور : « **كذلك يقتل ابنه** » . وقيل له : « **وقد خربت ديارك** ! » ، فرد أيضـاً : « **كذلـك تخرب دورهم** ! » .

= وكـل ذخـيـرة لا بـد يـومـاً وإن كـرمـت تـصـيـر إلـى نـفـاذ

كان الرشيد قد اتخذ كل الاجراءات لتطويق الحادث ، فعندما وجه (مسروراً وحماد بن سالم) لإحضار جعفر ، كتب إلى (السندي ابن شاهك الحرشي) جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . يا سندي ، إذا نظرت في كتابي هذا ، فإن كنت قاعداً فقم ، وإن كنت قائماً فلا تقعد حتى تصير إليَّ » . وأسرع السندي وأصحابه ، حتى دخل على أمير المؤمنين ، فقربه أمير المؤمنين إليه ، وسأله : « هل تدري فيم أرسلت إليك ؟ » فأجاب السندي : « لا والله يا أمير المؤمنين ! » فقال له الرشيد : « **قد بعثت إليك في أمر لو علم به زر قميصي رميت به في الفرات ، يا سندي !** من أوثق قوادي عندي ؟ » فرد السندي : « هرثمة بن أعين » فقال الرشيد : « صدقت ! فمن أوثق خدمي عندي ؟ » وأجاب السندي : « مسرور الكبير » فقال الرشيد : « **صدقت ، فامض من ساعتك هذه ، وجد في سيرك حتى توافي مدينة السلام ، فاجمع ثقات أصحابك وأرباعك ، ومرهم أن يكونوا وأعوانهم على أهبة ، فاذا انقطعت الرُّجل ـ الجماعة من الناس ـ فصر إلى دور البرامكة ، موكل بكل باب من أبوابهم صاحب ربع ، ومره أن يمنع من يدخل ويخرج ، خلا باب محمد بن خالد حتى يأتيك أمري** » .

أمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من أحاط (بيحيى بن خالد) وجميع ولده ومواليه ، ومن كان منهم بسبيل ، فلم يفلت منهم أحد كان حاضراً ، وحول الفضل بن يحيى ليلاً فحبس في ناحية من منازل الرشيد ، وحبس يحيى بن خالد في منزله ، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك ، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم

خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها . ووجه من ليلته الخادم (رجاء) إلى الرقة ، في قبض أموالهم وما كان لهم ، وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم ، وولاه أمورهم ، وفرق الكتب من ليلته إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم ، وأخذ وكلائهم . فلما أصبح ، بعث (الخادم مسرور) إلى منزل جعفر بن يحيى ، وأرسل (ابراهيم بن حميد وحسين الخادم) إلى منزل الفضل بن يحيى ، كما بعث (يحيى بن عبد الرحمن والخادم رشيد) إلى منزل يحيى ومحمد بن يحيى ، وجعل معهما (هرثمة بن أعين) ، كما أرسل جثة (جعفر بن يحيى) مع شعبة الخفتاني وهرثمة بن أعينْ وابراهيم بن حميد المروروذي ، وأتبعهم عدة من خدمه وثقاته ، وأمرهم بقبض جميع مالهم . وكتب إلى السندي بن شاهك بتوجيه جيفة جعفر إلى مدينة السلام ، ونصب رأسه على الجسر الأوسط ، وقطع جثته ، وصلب كل قطعة منها على الجسر الأعلى والجسر الأسفل ، ففعل السندي ذلك . وحمل عدة من أولاد الفضل وجعفر ومحمد الأصاغر إلى الرشيد ، فأمر بإطلاقهم ، وأمر بالنداء ، في جميع البرامكة : « ألا أمان لمن آواهم » إلا محمد بن خالد وولده وأهله وحشمه ، فانه استثناهم ، لما ظهر من نصيحة محمد له ، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة .

كان أنس ابن أبي شيخ أحد أصحاب البرامكة ، وكان الرشيد قد علم أنه على الزندقة ، فلما كان صبح الليلة التي قتل فيها جعفر بن يحيى ، أحضره الرشيد ، فدَار بينهما حديث ، تأكد فيه الرشيد من زندقة أنس ابن أبي شيخ ، فأخرج سيفاً من تحت فراشه ، وأمر أن

تضـرب به عنقـه[1] . فضرب عنقـه ، فسبق السيف الدم ، فقـال الـرشيد : « رحـم الله عبـد الله بـن مصعب » وكـان عبـد الله بـن مصعب على استخبارات الرشيد ، وهو الذي أعلمه بزندقة أنس ابن أبي شيخ . وكان السيف الذي أخرجه الرشيد ، وقتل به أنس ، هو سيف الزبير بن العوام .

(١) تمثل الرشيد عندما أخرج السيف لقتل أنس :

تـلمظَ السـيـفُ مـن شـوق إلـى أنسٍ
فـالسـيـف يـلحظُ والأقـدارُ تَـنـتـظرُ

تاريخ الطبري (٨/٢٩٦ ـ ٢٩٧) وانظر قراءات ٧ ـ ما قيل من شعر في نكبة البرامكة .

١٢ ـ ابـراهيم بن عثمـان بن نهيــك على درب البرامكة

كان ابراهيم بن عثمان بن نهيك من أنصار البرامكة ، فكان بعد نكبتهم كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة، فيبكي جزعاً عليهم وحباً لهم ، إلى أن خرج من حد البكاء ، ودخل في باب طالبي الثأر والإحن ، فكان إذا خلا بجواريه وشرب وقويَ عليه النبيذ ، قال : «يا غلام ، سيفي ذا المنية ـ وكان قد سمى سيفه ذا المنية ـ » فيجيئه غلامه بالسيف ، فينتضيه ، ثم يقول : « **واجعفراه ! واسيداه ! والله لأقتلن قاتلك ، ولأثأرن بـدمك عن قليـل !** » . فلما كثر هذا من فعله ، جاء ابنه عثمان الى وزير الرشيد (الفضل بن الربيع) فأخبره بقوله . فدخل الفضل فأخبر الرشيد ، فقال : « أدخله ! » ففعل . فقال له الرشيد « ما الذي قال الفضل عنـك ؟ » فأخبـره بقول أبيـه وفعله . فسأله الرشيد : « فهـل سمع هـذا أحد معـك ؟ » فقال : نعم ، خادمه نوال . فدعا الرشيد خادمه سراً ، فسأله ، فقال : « لقد قال ذاك غير مرة ولا مرتين » فقال الرشيد : « **ما يحل لي أن أقتل ولياً من أوليائي بقول غلام وخصي ، لعلهما تواصيا ـ اتفقـا ـ على هذه المنافسة : الابن على المرتبة ، ومعاداة الخادم لطول الصحبة** » فترك

ذلك أياماً ، ثم أراد أن يمتحن ابراهيم بن عثمان بمحنة تزيل الشك عن قلبه ، والخاطر عن وهمه ، فدعا (الفضل بن الربيع) فقال له : **« أريد محنة ابراهيم بن عثمان فيما رفع ابنه عليه ، فإذا رفع الطعام ، فادع بالشراب ، وقل له : أجب أمير المؤمنين فينادمك ، إذ كنت منه بالمحل الذي أنت به ، فإذا شرب فاخرج وخلني وإياه »** . ففعل ذلك الفضل بن الربيع ، وقعد إبراهيم للشراب ، ثم وثب حين وثب الفضل بن الربيع للقيام والخروج ، فقال له الرشيد : « مكانك يا إبراهيم ! » فقعد ، فلما طابت نفسه ، أومأ الرشيد إلى الغلمان فتنحوا عنه ، ثم قال : « يا إبراهيم ، كيف أنت وموضع السر منك ؟ » قال : « يا سيدي إنما أنا كأخص عبيدك ، وأطوع خدمك » ، قال الرشيد : « إن في نفسي أمراً أريد أن أودعكه ، وقد ضاق صدري به ، وأسهرت به ليلي » فرد ابراهيم بن عثمان : « يا سيدي ! إذاً لا يرجع عني إليك أبداً ، وأخفيه عن جنبي أن يعلمه ، ونفسي أن تذيعه » فقال الرشيد : **« ويحك ! إني ندمت على قتل جعفر بن يحيى ندامة ما أحسن أن أصفها ، فوددت أني خرجت من ملكي ، وأنه كان بقي لي ، فما وجدت طعم النوم مذ فارقته ، ولا لذة العيش منذ قتلته ! »** . فلما سمعها ابراهيم ، أسبل دمعه ، وأذرى عبرته ، وقال : « رحم الله أبا الفضل ، وتجاوز عنه ، والله يا سيدي لقد أخطأت في قتله ، وأوطئت العشوة في أمره ، وأين يوجد في الدنيا مثله ! وقد كان منقطع القرين في الناس أجمعين ديناً . . . » فقال الرشيد : **« قم عليك لعنة الله يا ابن اللخناء »** . فقام ما يعقل ما يطأ ، فانصرف إلى أمه ، فقال : « يا أم ! ذهبت والله نفسي ! لقد امتحنني الرشيد بمحنة والله لو كان لي ألف نفس لم أنج بواحدة

منها »[1] ولم تمض اكثر من ليال قليلة على ـ هذا الامتحان ـ حتى دخل عليه ابنه فضربه بسيفه حتى مات .

---

(١) تاريخ الطبري ، وابن الاثير ، احداث سنة ١٨٧هـ .

١٣ ـ غضب الرشيد
على عبد الملك بن صالح

كان عبد الملك بن صالح من قرابة أمير المؤمنين الرشيد ، وكان من كبار رجال الدولة ، وبينما الرشيد يسير يوماً وفي موكبه عبد الملك بن صالح ، إذ هتف به رجل فقال : « **يا أمير المؤمنين ! طأطيء من إشرافه ، وقصر من عنانه ، واشدد من شكائمه ، وإلا أفسد عليك ناحيته** » فتظاهر الرشيد بعدم السماع ، والتفت إلى عبد الملك ، وقال له : « ماذا يقول هذا **يا** عبد الملك ؟ » . فقال عبد الملك : « مقال باغ ودسيس حاسد » فعقب الرشيد بقوله : « **صدقت ! نقص القوم ففضلتَهم ، وتخلفوا وتقدمتهم ، حتى برز شأوك ، فقصر عنه غيرك ، ففي صدورهم جمرات التخلف ، وحزازات النقص** » فقال عبد الملك : « لا أطفأها الله وأضرمها عليهم حتى تورثهم كمداً دائماً أبداً . . . » ، غير أن الرشيد لم يتجاهل ما قاله الرجل أو ينساه . وكان لعبد الملك بن صالح ابن يقال له عبد الرحمن ، وكان يكنى به ، وعرف عن عبد الرحمن أنه كان من رجال الناس ، فذهب إلى الرشيد ، وسعى به بالوشاية ، إذ قال للرشيد : « بأن ـ عبد الملك ـ يطلب الخلافة ويطمع فيها » وجاء

كاتب عبد الملك وخادمه ـ قُمامة ـ فأيد أقوال عبد الرحمن وأيدها ، فما كان من الرشيد إلا أن أخذ عبد الملك وحبسه عند الفضل بن الربيع .

عمل الرشيد على أثر ذلك ، على إرسال رسالة إلى يحيى بن خالد البرمكي ـ وهو في معتقله ـ تضمنت ما يلي : « **إن عبد الملك إبن صالح أراد الخروج ومنازعتي في الملك ، وقد علمت ذلك ، فأعلمني ما عندك فيه ، فإنك إن صدقتني أعدتك إلى حالك** » . فرد يحيى بن خالد برسالة جاء فيها : « . . . والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ، ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك ، لأن ملكك كان ملكي ، وسلطانك كان سلطاني ، والخير والشر كان فيه عليَّ ولي ، فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني ! وهل كنتُ إذا فعلت ذلك به يفعل بي اكثر من فعلك ! أعيذك بالله أن تظن بي هذا الظن ، ولكنه كان رجلاً محتملاً ، فسرني أن يكون في أهلك مثله ، فوليته لما أحمدت من مذهبه ، وملت إليه لأدبه واحتماله » .

عندما وصلت الرسالة إلى الرشيد ، أرسل خادمه (مسرور) فقال ليحيى : « إن أنت لم تقر ـ تعترف ـ عليه ، قتلت الفضل ابنك » فرد يحيى على رسالة الرشيد : « أنت مسلط علينا فافعل ما أردت ، على انه إن كان من هذا الأمر شيء ، فالذنب فيه لي ، فبم يدخل الفضل في ذلك ؟ » . فقال مسرور للفضل : « قم ! فإنه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك » فلم يشك الفضل أنه قاتله ، فودع أباه بقوله : « ألست راضياً عني ؟! » قال يحيى : « بلى ! رضي الله عنك » ففرق الرشيد بينهما ثلاثة أيام ، فلما لم يجد عند يحيى شيئاً

من المعلومات ، جمعهما كما كانا ، ورجع الفضل إلى أبيه .

استدعى الرشيد بعدئذ عبد الملك بن صالح ـ وخاطبه بقوله :

« أكفراً بالنعمة ؟ وجحوداً لجليل المنة والتكرمة ؟ » .

رد عبد الملك على الرشيد بقوله: «يا أمير المؤمنين! لقد بؤتُ إذاً بالندم ، وتعرضت لاستحلال النِّقم . وما ذاك إلا بغيُ حاسد نافسني فيك مودة القرابة وتقديم الولاية . إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله ﷺ في أمته ، وأمينه على عترته ، لك فيها فرض الطاعة وأداء النصيحة ، ولها عليك العدل في حكمها والتثبت في حادثها ، والغفران لذنوبها » . فقال له الرشيد : « أتضع لي من لسانك ؟ وترفع لي من جنانك ؟ هذا كاتبك ـ قمامة ـ يخبر بغِلك وفساد نيتك ، فاسمع كلامه » . فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس في عقده ، ولعله لا يقدر أن يعضهني ـ يجابهني ـ ولا يبهتني بما لم يعرفه مني » . وأحضر قمامة ، فقال له الرشيد : « تكلم غير هائب ولا خائف » فقال الخادم قمامة ـ مشيراً إلى عبد الملك ـ : «إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك » فقال عبد الملك مخاطباً خادمه : « أهو كذاك يا قمامة ؟ » فرد قمامة : « نعم ، لقد أردت ختل أمير المؤمنين ! » فقال عبد الملك : « كيف لا يكذب علي من خلفي وهو يبهتني في وجهي ؟ » . فقال له الرشيد : « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوك وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك ، فبم تدفعهما عنك ؟ » فرد عبد الملك بن صالح : «هو مأمور أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً فمعذور، وإن كان عاقاً ففاجر كفور ، أخبر الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله :

﴿ إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَولادِكُمْ عَدُواً لَكُم فاحْذَروهُمْ ﴾[1] .

نهض الرشيد وهو يقول : « **أما أمرك فقد وضُحَ ، ولكني لا أَعَجِّل حتى أعلم الذي يرضي الله فيك ، فإنه الحكم بيني وبينك !** » .

ورد عبد الملك بن صالح : « رضيت بالله حكماً ، وبأمير المؤمنين حاكماً ، فإني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه ، وأمر الله على رضاه » .

لما كان بعد ذلك ، جلس الرشيد مجلساً آخر ، واستدعى عبد الملك بن صالح ، فلما دخل ، ألقى السلام ، فلم يرد عليه الرشيد ، فقال عبد الملك : « ليس هذا يوماً أحجّ فيه ، ولا أجاذب منازعاً وخصماً » . وسأله الرشيد : « ولِم ؟ » فرد عبد الملك : « لأن أوله جرى على غير السنة ، فأنا أخاف آخره » وعاد الرشيد فقال : « **وما ذاك؟** » فرد عبد الملك بقوله : « لم ترد عليَّ السلام ، أنصف نصفه العوام» فقال الرشيد: «السلام عليكم، اقتداء بالسنة وإيثاراً للعدل ، واستعمالاً للتحية » ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر ، فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

أُريدُ حَياتهُ ويريدُ قتلي
عذيرُك من خليلك من مُراد[2]

ثم وجه حديثه مباشرة إلى عبد الملك : « أما والله لكأني أنظر شؤبوبها قد همع ، وعارضها قد لمع ، وكأني بالوعيد قد أورى ناراً

---

(١) سورة التغابن ١٤ . وانظر تاريخ الطبري والكامل في التاريخ ـ احداث سنة ١٨٧هـ .

(٢) البيت من قصيدة لعمرو بن معدي كرب .

تسطع ، فتقلع عن براجم بلا معاصم ورؤوس بلا غلاصم، فمهلاً، فبي والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها ، فنذارِ لكم نذار ، قبل حلول داهية خبوط باليد ، لبوط بالرجل»[١] . ورد عبد الملك على أمير المؤمنين بقوله: «إتقّ الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك ، وفي رعيته التي استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع الثواب . قد نخلتُ لك النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركنيْ يَلمْلم، وتركت عدوك مشتغلاً. فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه، بعد أن بللته بظن أفصح الكتابُ لي بعضهه ، أو ببغي باغ ينهش اللحم ، ويالغُ الدم ، فقد والله سهلتُ لك الوعور ، وذللت لك الأمور ، وجمعت على طاعتك القلوب التي في الصدور . فكم من ليل تمام فيك كابدته ، ومقام ضيق قمته »[٢] فنهض الرشيد وهو يقول : « **أما والله لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك** » .

دخل قائد شرطة الرشيد ـ عبد الله بن مالك ـ يوماً واستأذن الرشيد بقوله : « أفي إذنْ أنا فأتكلم ؟ » فقال الرشيد : « تكلم ! » فقال : « لا ! والله العظيم يا أمير المؤمنين ما علمتُ عبد الملك إلا

---

(١) الشؤبوب : الدفعة من المطر . العارض : السحاب المعترض في الأفق .
البراجم : مفاصل الأصابع ، والمعصم : اليد وجمعه معاصم .
الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق ، وجمعه غلاصم .

(٢) وختم عبد الملك حديثه متمثلاً بقول أخي بني جعفر بن كلاب :

وَمَقام ضيق فَرجته ... ببناني ولساني وجَدَلْ
لسو يقوم الفيلُ أو فيَّالهُ ... زَلَّ عن مثل مقامي وزَحَلْ

وفي النص كلمة (بعضهه) من كلمة أعضه ومعناها بهته وقال ما ليس فيه .

ناصحاً ، فعلام حبسته ؟ ! » قال الرشيد : « ويحك ! بلغني عنه ما أوحشني ولم آمنه أن يضرب بين ابنيَّ هذين ـ يعني الأمين والمأمون ـ فإن كنت ترى أن نطلقه من الحبس أطلقناه » فقال ابن مالك : « أما إذ حبسته يا أمير المؤمنين ، فلست أرى في قرب المدة أن تطلقه ، ولكن أرى أن تحبسه محبساً كريماً يشبه محبس مثلك مثله » ، فرد الرشيد بقوله : « سأفعل ! » . فدعا الرشيد (الفضل بن الربيع) فقال له : « إمض الى عبد الملك بن صالح في محبسه ، فانظر ما يحتاج إليه في محبسه ، فأمر به حتى تستجيب لكل ما سأل وطلب » .

* * *

أصبح عبد الملك بن صالح بعد ذلك محبوساً عند الفضل ابن الربيع إلى أن مات الرشيد ، فلما ولي محمد ـ الأمين ـ أطلق سراحه ، وعقد له على الشام ، فأقام بالرقة . وأخلص عبد الملك بن صالح لمحمد الأمين ، فأعطاه عهداً « لئن قتل ـ الأمين ـ وهو حي ، فانه لا يعطي للمأمون طاعة أبداً » وقال له : « إذا خفت فالجأ إلي ، فوالله لأصوننك » ولكن عبد الملك بن صالح مات قبل أن يقتل الأمين ، ودفن في دار من دور الإمارة ، فلما انتهى الأمر للمأمون ، وأراد الخروج لغزو بلاد الروم ـ والمرور بالرقة ـ أرسل إلى ابن عبد الملك بن صالح : « حول أباك من داري » فنبشت عظامه وحُولت .

١٤ ـ بيعة الرشيد لأبنائه بولاية العهد

لم يكن للرشيد ابن كبير يعهد إليه بولاية العهد ، فمد قوم من بني العباس أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد . فجاء عيسى بن جعفر إلى الفضل بن يحيى وقال له : « أنشدك الله لما عملت في البيعة لابن اختي ـ يعني محمد بن زبيدة بنت جعفر بن المنصور ـ فإنه ولدٌ لك وخلافته لك » فوعده أن يفعل . وتوجه الفضل إلى الرشيد فأقنعه بالبيعة لابنه محمد (سنة ١٧٥هـ) . فوافق الرشيد ، وعقد لإبنه بمدينة السلام من بعده ولاية عهد المسلمين ، وأخذ له بذلك بيعة القواد والجند ، وسماه بالأمين ، وكان له يومئذ خمس سنين[1] فلما

---

(١) وفي ذلك قال سلم الخاسر (تاريخ الطبري ٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) :

قد وفَّقَ اللهُ الخليفة إذ بنى ... بيت الخليفة للهجَانِ الأزهَرِ
فهو الخليفة عن أبيه وجدِّهِ ... شهدا عليه بمنظرٍ وبمخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

بايع له ، أنكر بنو العباس ذلك لصغر سن محمد الأمين . وخرج الفضل إلى خراسان ـ والياً عليها ـ وأجمع على البيعة لمحمد ، ففرق الأموال ، وأعطى الجند أعطيات متتابعات ، ثم أظهر البيعة لمحمد ابن الرشيد ، فبايع الناس لمحمد الأمين[1] . ولما بايع له أهل المشرق ، كتب إلى الآفاق ، فبويع له في جميع الأمصار[2] . فلما كانت سنة (١٨٦هـ) حج هارون الرشيد بالناس ، وأخرج معه ابنيه (محمداً الأمين وعبد الله المأمون) فبدأ بالمدينة المنورة ، فأعطى أهلها ثلاثة أعطية ، كانوا يقدمون إليه فيعطيهم عطاء ، ثم إلى محمد فيعطيهم عطاء ثانياً ، ثم إلى عبد الله فيعطيهم عطاء ثالثاً . ثم صار إلى مكة المكرمة فأعطى أهلها ، فبلغ ذلك ألف ألف دينار (مليون) وخمسين ألف دينار . وكان الرشيد قد بايع لابنه عبد الله المأمون سنة ١٨٣هـ . بالرقة ، وولاه من حد همذان إلى آخر المشرق[3] .

---

(١) وفي ذلك قال النمري :

أمست بمروَ على التوفيق قد صَفَقَتْ
على يد الفضل أيدي العُجم والعرب
ببيعة لولي العهد أحكمها
بالنصح منه وبالاشفاق والحدب
قد وَكَّدَ الفضل عقداً لا انتقاص له
لمصطفى من بني العباس منتخب

(٢) وفي ذلك قال أبان اللاحقي :

عزمت أمير المؤمنين على الرشد
برأي هدىً ، فالحمد لله ذي الحمد

(٣) وفي ذلك قال سَلْمٌ بن عمرو الخاسر (تاريخ الطبري ٨/٢٧٦ ـ ٢٧٧) :

بايع هارون إمام الهدى ... لذي الحجى والخُلُقِ الفاضل
المخلف المتلف أمواله ... والضامن الأثقال للحامل =

كان الإبن الأصغر للرشيد (القاسم) في حجر عبد الملك بن صالح ، فلما بايع الرشيد لإبنيه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، كتب عبد الملك بن صالح إلى الرشيد يحضه على البيعة للقاسم أيضاً[1] فما كان من الرشيد إلا أن بايع للقاسم وسماه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم[2] . ولما قسم الرشيد بلاد الاسلام بين أولاده الثلاثة ، قال بعض العامة « ان الرشيد قد أحكم الملك » وقال بعضهم : « بل ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية »[3] .

= والعالم النافذ في علمه ... والحاكم الفاضل والعادل
والراتق الفاتق حلف الهدى ... القائل الصادق والفاعل
لخير عباس إذا حُصِّلوا ... والمفضل المجدي على العائلِ
أبَرُّهم براً وأولادهم ... بالعِرف عند الحدث النازل
لمشبه المنصور في ملكه ... إذا تدجت ظلمة الباطل
فتم بالمأمون نور الهدى ... وانكشف الجهل عن الجاهل

(١) كتب عبد الملك بن صالح في ذلك إلى الرشيد :

يا أيها الملكُ الذي ... لو كان نجماً كان سَعْدا
اعقد لقاسم بيعة ... واقدح له في الملك زَنْدا
اللَّهُ فردٌ واحدٌ ... فاجعل ولاة العهدِ فردا

(٢) فكتب عبد الملك في ذلك :

حب الخليفة حب لا يدين به ... من كان للهِ عاصٍ يعمل الفتنا
الله قلد هاروناً سياستنا ... لما اصطفاهُ فأحيا الدين والسننا
وقلد الأرض هارونٌ لرأفته ... بنا أميناً ومأموناً ومؤتمنا

(٣) وقالت الشعراء في ذلك ، فقال بعضهم :

أقول لغمَّة في النفس مني ... وَدَمْع العين يَطَّرد اطّرادا
خذي للهول عُدَّته بحزمٍ ... سنلقى ما سيمنعُك الرقادا =

جمع الرشيد في مكة المكرمة كبار الفقهاء والقضاة وأجهد آراءهم في البيعة ، فلما قضى مناسك الحج ، كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين ، أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبد الله من الأعمال ، وصير إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشرط لعبد الله على محمد وعليهم ، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد ، وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم ، وعلق الكتب بستائر الكعبة[1] .

عاد الرشيد من الحج ، فأوقع بالبرامكة وفقاً لما سبق عرضه ، وانتقل إلى الرقة فأقام بها ، ثم رجع إلى بغداد ، وجدد البيعة لابنه (محمد الأمين) ولابنه (عبد الله المأمون) وجعل أمر القاسم في

= فإنك إن بقيت رأيت أمراً ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأي الملك المهذب شر رأي ... بقسمته الخلافة والبلادا
رأي ما لو تعقبه بعلم ... لبيَّض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافَهُمُ ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آلٍ ... وأورث شمل ألفتهم بَدادا
وألقح بينهم حرباً عواناً ... وسَلَّسَ لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فانٍ ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجري من دمائهم بحور ... زواخرُ لا يرون لها نفادا
فوزرٌ بلائهم أبداً عليه ... أغيّاً كان ذلك أم رشادا

(١) انظر نصوص الكتب في قراءات (٨) في آخر الكتاب .

خلعه وإقراره إلى عبد الله إذا أفضت اليه الخلافة[1] .

كانت الأحوال في المشرق مضطربة ، فقرر الرشيد أن يسير بنفسه الى خراسان . وجاء ذو الرياستين إلى عبد الله المأمون وقال له : « لست تدري ما يحدث بالرشيد وهو خارج إلى خراسان وهي ولايتك ، ومحمد ـ الأمين ـ مقدم عليك ! وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك ، وهو ابن زبيدة ، وأخواله بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها ، فاطلب إليه أن يشخصك معه » . وتقدم المأمون إلى الرشيد ، وسأله أن يأذن له بالشخوص معه ـ مرافقته ـ . فرفض الرشيد طلبه ، فقال له المأمون : « أنت عليل ، وإنما أردت أن أخدمك ، ولست أكلفك شيئاً » فأذن له .

وجاء الشعراء لوداع الرشيد ، فدخل عليه العماني ، وأنشده :

قل للإمام المقتدى بأمه

ما قاسم دون مدى ابن أُمه

فقد رضيناه فقم فسمِّهِ

فقال الرشيد : ما ترضى أن تدعوَ إلى عقد البيعة له وأنا جالس حتى تنهضني قائماً . فرد العماني : قيام عزم يا أمير المؤمنين ، لا قيام حتم . فقال : يؤتى بالقاسم ، فأتي به ، وطبطب في أرجوزته . فقال الرشيد للقاسم : إن هذا الشيخ قد دعا إلى عقد البيعة لك ، فأجزل له العطية .

---

(١) وفي ذلك قال ابراهيم الموصلي :

خير الأمور مغبة ... وأحق أمر بالتمام

أمر قضى إحكامه الرحمن في البيت الحرام

وقال الرشيد لابنه القاسم : أنت للمأمون ببعض لحمك هذا .
فقال القاسم : ببعض حظه .

وقال الرشيد لابنه القاسم : قد أوصيت الأمين والمأمون بك ، قال : « أما أنت يا أمير المؤمنين فقد توليت النظر لهما ، ووكلت النظر لي إلى غيرك» . فبايع الرشيد لابنه القاسم ، على نحو ما سبق ذكره .

لقد حاول الرشيد أن يوطد دعائم الحكم ، وأن يجنب المسلمين الفتن ، ولعله كان يشعر مسبقاً باحتمال وقوع الخلاف بين الاخوة (الأمين والمأمون) فأراد بذل جهد المستطاع ، وبذل أكثر مما هو مستطاع ، لنفي أسباب الخلاف ، غير أن تلك الجهود المبذولة لم تتمكن من رأب الصدع بصورة نهائية .

١٥ ـ الصفحة الأخيرة
في حياة الرشيد

كان الرشيد قد استشار (يحيى بن خالد) في تولية (**علي بن عيسى بن ماهان**) على خراسان ، فأشار عليه ألا يفعل ، فخالفه الرشيد في أمره ، وولاه إياها . فلما وصل (علي بن عيسى) إلى عمله ، ظلم الناس ، وعسر عليهم ، وجمع مالاً جليلاً ، ووجه إلى هارون منها هدايا لم يُر مثلها قط من الخيل والرقيق والثياب والمسك والأموال ، فقعد هارون بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل ما بعث به (عليٌّ) إليه . وأحضرت تلك الهدايا فعرضت عليه ، فعظمت في عينه ، وجل عنده قدرها ، وإلى جانبه (يحيى بن خالد) فقال له وهو كالمازح معه إذ ذاك : « يا أبا علي ! هذا الذي أشرت علينا ألا نوليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه ، فكان في خلافك البركة ، فقد ترى ما أنتج رأينا فيه ، وما كان من رأيك ! » فقال يحيى : « يا أمير المؤمنين! جعلني الله فداك ! أنا وإن كنت أحب أن أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي ، فأنا أحب من ذلك أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى ، وفراسته أثقب ، وعلمه أكثر من علمي ، ومعرفته فوق معرفتي . وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن وراءه ما

يكره أمير المؤمنين ، وما أسأل الله أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه » فقال الرشيد : « وما ذاك ؟ » فرد يحيى : « ذاك أني أحسب أن هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف ، وأخذ أكثرها ظلماً وتعدياً . ولو أمرني أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ » . فسأل الرشيد : « وكيف ذاك ؟ » فرد يحيى : « قد ساومنا ـ عوناً ـ على السفط الذي جاءنا به من الجوهر ، وأعطيناه به سبعة آلاف ألف ، فأبى أن يبيعه ، فأبعث إليه الساعة بحاجتي ، فآمره أن يرده إلينا ، لنعيد فيه نظرنا ، فإذا جاء به جحدناه ـ أنكرناه عليه ـ وربحنا سبعة آلاف ألف . ثم كنا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك . وعلى أن هذا أسلم عاقبة ، وأستر أمراً من فعل ـ علي بن عيسى ـ في هذه الهدايا بأصحابها . فأجمع لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعي ، وأيسر أمر ، وأجمل جباية مما جمع ـ عليٌّ ـ في ثلاث سنين » .

فوقرت في نفس الرشيد ، وحفظها ، وأخذ في تحري أمر ـ علي بن عيسى ـ وجاءته المعلومات بسرعة ، لقد ركب في خراسان مركب الظلم والجور ، فوتر أشراف الناس ، وأخذ أموالهم واستخف برجالهم ، وكتب رجال من كبرائها ووجوهها الى الرشيد ، وكتبت جماعة من كورها ـ نواحيها ـ إلى قراباتها وأصحابها ، تشكو سوء سيرته ، وخبث طعمته ، ورداءة مذهبه ، وتسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به من أحب من كفاته وأنصاره وأبناء دولته وقواده . فاقتنع الرشيد بضرورة عزله ومعاقبته ، وأخذ ينتظر الفرصة المناسبة .

* * *

كان (علي بن عيسى بن ماهان) مشغولاً خلال تلك الفترة في حرب الثائر (**رافع بن ليث**) الذي ثار بسبب إنزال العقاب به بأمر من الرشيد ، وكان لهذه العقوبة قصتها :

كان يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي متزوجاً من ابنة عمه أبي النعمان ، وكانت ذات يسار - غنى وثراء - فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند ، فلما طال مقامه بها ، وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد ، التمست سبباً للتخلص منه ، فعيَّ عليها ، وبلغ رافعاً خبرها ، فطمع فيها وفي مالها ، فدس إليها من قال لها : « **إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله ، وتحضر لذلك قوماً عدولاً ، وتكشف شعرها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحل للأزواج** » ففعلت ذلك وتزوجها رافع . وبلغ الخبر (يحيى بن الأشعث) فرفع ذلك إلى الرشيد ، فكتب إلى (علي بن عيسى) يأمره أن يفرق بينهما ، وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ، ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيداً على حمار ، حتى يكون عظة لغيره . فدرأ سليمان بن حميد الأزدي عنه الحد ، وحمله على حمار مقيداً حتى طلعتها ، ثم حبسه في سجن سمرقند . فهرب من الحبس ليلاً ، ولجأ إلى (علي بن عيسى - ببلخ -)وطلب الأمان ، فلم يجبه (عليٌّ) وهم بضرب عنقه،فكلمه فيه ابنه (عيسى بن علي بن عيسى) وجدد طلاق المرأة ، وأذن له في الانصراف إلى سمرقند ، فانصرف إليها ، وما كاد يصلها ، حتى أعلن ثورته ، وقتل سليمان بن حميد عامل (علي بن عيسى) ، على سمرقند . فوجه إليه (علي بن عيسى) ابنه ، فمال الناس إلى (سباع بن مسعدة) فرأسوه عليهم ، فوثب على رافع فقيده . فوثبوا

على سباع ، فقيدوه ورأسوا رافعاً وبايعوه ، وانضم إليه مَنْ وراء النهر . ووافاه (عيسى بن علي) فلقيه رافع وهزمه ، فأخذ (علي بن عيسى) في جمع الرجال ، والتأهب للحرب ، وكتب الى الرشيد يشرح الموقف ويستمده . ومقابل ذلك ، فقد كتب أهل نسف إلى (**رافع بن ليث**) يعطونه الطاعة ، ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل (**عيسى بن علي بن عيسى بن ماهان**) فوجه صاحب الشاش قائداً من قواده ، فأتى (عيسى بن علي) وطوقه وقتله . وعلى اثر ذلك ، خرج (علي بن عيسى) من بلخ حتى أتى مرو ، مخافة أن يسير إليها رافع بن ليث فيستولي عليها . وكان ابنه (عيسى) قد دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة ـ بلغت ثلاثين ألف ألف ـ ولم يعلم بها (علي بن عيسى) ولا اطلع على ذلك إلا جارية كانت له . فلما سار علي عن بلخ ، اطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم ، وتحدث به الناس ، فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها ، فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة . فبلغ الرشيد الخبر، فقال: « خرج علي من بلخ عن غير أمري وخلف مثل هذا المال ، وهو يزعم أنه قد أفضى إلى حلْي نسائه فيما أنفق على محاربة رافع » . واستدعى (**هرثمة بن أعين**) وقال له وهو مستخلياً به :

« إني لم أشاور فيك أحداً ، ولم أطلعه على سري فيك ، وقد اضطرب علي ثغور المشرق ، وأنكر أهل خراسان أمر ـ علي بن عيسى ـ إذ خالف عهدي ونبذه وراء ظهره ، وقد كتب يستمد ويستجيش ، وأنا كاتب إليه ، فأخبره أني أمده بك ، وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلع إليه نفسه ، وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضنه ، ولا تطلعن فيه حتى

تصل إلى مدينة (نيسابور) . فإذا نزلتها ، فاعمل بما فيه ، وامتثله ولا تجاوزه ـ إن شاء الله ـ وأنا موجه معك الخادم ـ رجاء ـ بكتاب أكتبه إلى علي بن عيسى بخطي ، ليتعرف ما يكون منك ومنه ، وهون عليه أمر (علي) فلا تظهرنه عليه ، ولا تعلمنه ما عزمتُ عليه ، وتأهب للمسير ، وأظهر لخاصتك وعامتك أني أوجهك مدداً لعلي ابن عيسى ، وعوناً له »[1] .

وتوجه (هرثمة بن أعين) فنفذ المهمة بنجاح ، واستصفى أموال (علي بن عيسى) فبلغت ثمانين ألف ألف ، وأعاد للمظلومين ما اغتصب منهم ، وأرسى قواعد العدل ، وأمن الناس .

* * *

بقي أمر رافع بن ليث وثورته ، وبقي الاضطراب مهيمناً على أقاليم المشرق ، فقرر الرشيد التوجه بنفسه لمعالجة الموقف ، وخرج من بغداد مودعاً فقال :

« والله إني لأطوي مدينة ما وُضعت بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وإنها لوطني ووطن آبائي ، ودار مملكة بني العباس ما بقُوا وحافظوا عليها ، وما رأى أحدٌ من آبائي سوءاً ولا نكبة منها ، ولا سيء بها أحد منهم قط . ولنعم الدار هي ! ولكني أريد المناخ ـ النزول ـ على أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة ـ بني أمية ـ مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ، ولولا ذلك ، ما فارقت بغداد ما حييت ولا خرجت عنها أبداً » .

---

(١) انظر قراءات (٩) في نهاية الكتاب .

غادر الرشيد بغداد ، وأقام معسكره (بالنهروان) حتى إذا ما أنهى استعداداته ، تحرك إلى (قرماسين) ووجه (هرثمة بن أعين) إلى خراسان ، ثم سار إلى الري ، فأقام بها نحواً من أربعة أشهر ، حتى قدم عليه (علي بن عيسى) من خراسان ، بالأموال والهدايا والطرف من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدواب . وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم . ورأى من الضروري قبل تحركه إعادة تنظيم الأقاليم ، فبعث خادمه (حسيناً) إلى طبرستان ، وزوده بثلاثة كتب ، من ذلك كتاب فيه أمان (لشروين أبي قارن) والآخر فيه أمان (لونداهرمز ـ جد مازيار) والثالث فيه أمان (لمرزبان ابن جستان ـ صاحب الديلم ـ) . **وقدم عليه سعيد الحرشي بأربعمائة بطل من طبرستان ، فأسلموا على يد الرشيد . وقدم ونداهرمز وقبل الأمان وضمن السمع والطاعة وأداء الخراج ، وضمن على شروين مثل ذلك ، فقبل ذلك منه الرشيد وصرفه ،** ووجه معه هرثمة ، فأخذ ابنه وابن شروين رهينة ، وقدم عليه الري أيضاً (خزيمة بن خازم) وكان والي أرمينية ، فأهدى هدايا كثيرة . وولى (عبد الله بن مالك) طبرستان والري والرويان ودنباوند وقومس وهمذان . وتحرك عبد الله بن مالك بجيش من عشرة آلاف فارس إلى أذربيجان ، للقضاء على الثورة التي أشعل نارها ـ الخُرَّمية ـ فأسر وسبى ، فأمر الرشيد بقتل الأسارى وبيع السبي . وعندما عرف الرشيد أن الأمور قد استقرت في (الري)[1] تحرك إلى

---

(١) من المعروف أن الرشيد كان قد ولد في الري ، فكان يحن إلى موطن مولده . فلما أظهر اهتمامه باصلاح أمور الري ، وشخص اليها بنفسه ، قال أبو العتاهية : =

(جرجان[1] ثم انتقل إلى (طوس). وأثناء ذلك كان (هرثمة بن أعين) قد خاض معركة مع أصحاب (رافع بن ليث) وانتصر عليهم، وفتح بخارى وأسر أخا رافع (واسمه بشير بن ليث) فحمل الى الرشيد بمدينة (طوس). وكان الرشيدقد أصيب بالمرض ، ولزم فراشه ، فلما أدخل عليه (بشير بن ليث) خاطبه بقوله : «**أما والله يا ابن اللخناء ، إني لأرجو ألا يفوتني خامل ـ يريد رافعاً ـ كما لم تفتني**» فقال له بشير : « يا أمير المؤمنين! قد كنت لك حرباً ، وقد أظفرك الله بي ، فافعل ما يحب الله ، أكن لك سلماً ، ولعل الله أن يلين لك قلب رافع إذا علم أنك قد مننت عليَّ ! » فغضب الرشيد ، وقال : « **والله لو لم يبق من أجلي إلا أن أحرك شفتي بكلمة، لقلت: اقتلوه**»ثم دعا بقصاب ، فقال : « لا تشحذ مداك ، اتركها على حالها ، وفصل هذا الفاسق ابن الفاسق ، وعجل ، لا يحضرن أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه » ، ففصله حتى جعله أشلاء ، فقال : « عُدَّ أعضاءه » ، فعددت له أعضاءه ، فإذا هي أربعة عشر عضواً ، فرفع يديه إلى السماء ، فقال : « **اللهم كما مكنتني من ثأرك وعدوك ، فبلغت فيه رضاك ، فمكني من أخيه** » ثم أغمي عليه ، وتفرق من حضره .

* * *

= إن أمين الله في خلقِهِ حنٌّ به البر إلى مولده
ليصلح الري وأقطارها ويمطر الخير بها من يده

(١) لما كثر حل الرشيد وارتحاله منذ غادر بغداد ، قال العباس بن الأحنف (الطبري ٣١٧/٨) :

ما أنخنا حتى ارتحلنا فما نفـ ـرق بين المناخ والارتحال
ساءلونا عن حالنا إذ قدمنا فقرنا وداعَهُم بالسؤال

واشتدت العلة على الرشيد ، وأدخل عليه (سهل بن صاعد) وهو يجود بنفسه ، فدعا بملحفة غليظة فاحتبى بها ، وجعل يقاسي ما يقاسي ، فنهض سهل يريد الخروج فقال له الرشيد : « اقعد يا سهل ! » فقعد وطال جلوسه وهو لا يكلم الرشيد ، ولا الرشيد يكلمه ، والملحفة تنحل فيعيد الاحتباء بها ، فلما طال ذلك ، نهض سهل من جديد فعاد الرشيد وقال له : « إلى أين يا سهل ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ! ما يسع قلبي أن أرى أمير المؤمنين يعاني من العلة ما يعاني ، فلو اضطجعت يا أمير المؤمنين كان أروح لك ! » . فضحك الرشيد ضحك صحيح[1] .

* * *

اشتدت العلة بالرشيد ، وأدرك أنه قد اقترب من منيته ، فأمر بقبره فحفر في موضع من الدار التي كان فيها نازلاً ، بموضع يسمى المثقب ، في دار حميد بن أبي غانم الطائي ، فلما فرغوا من حفر القبر ، حمل الرشيد حتى نظر إليه ، وقال : « يابن آدم ! تصير إلى هذا » وأنزل فيه قوماً فقرءوا فيه القرآن حتى ختموا وهو في محفة على شفير القبر . ولما أحس بالموت ، أمر بالتفتيش عن أحسن أثوابه ، فحمل إليه ثوبان ، فقال : « اجعلوا أحسنهما كفني ، وردوا الآخر إلى موضعه » .

وأغمض الرشيد عينيه غريباً (بطوس) بعد أن حكم ثلاثاً

---

(١) ثم قال الرشيد : يا سهل إني أذكر في هذه الحال قول الشاعر (الطبري ٨/ ٣٤٥) :

وإني من قوم كرام يزيدهم
شماساً وصبراً شدة الحدثان

وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يـوماً ، وهـو يومئـذ ابن خمس وأربعين سنة .

* * *

مضى الرشيد للقاء وجه ربه ، حاملاً معه عمله ، ولا شيء غير ذلك ، وترك للدنيا سيرة يتحدث بها الزمان ، وكـانت حياة حـافلة بجلائل الأعمال . ثم تتابعت الأيام ، فتضخمت سيرة الرشيد بسبب ما كان يضاف إليها من الإضافات والملحقات والملصقات ، حتى اختلطت الحقيقة بالأسطورة ، وحتى امتزجت الوقائع بالخيالات ، فزادت سيرة الرشيد إثـارة على إثارتهـا ، وأضفت عليها طـابعاً من الغموض أحياناً . وقد كان ذلك كله طبيعياً ، فقد قمع الرشيد بقسوة متناهية الزنادقة والمنحرفين وكان لهؤلاء أشياعهم وأنصارهم ، فكان من المتوقع لهؤلاء أن يحاولوا الإساءة للرجل قدر ما يستطيعون في حياته ، أو حتى بعد مماته ، إذ لم يستطيعوا النيل منه في حياته . ثم جاءت نكبة البرامكة ، فحركت أحقاد الشعوبية الموتورة ، فحاولت هذه الشعوبية بدورها النيل من الرشيد ، والإساءة إليه بمـا هو منـه براء . ويظهر ذلك واضحاً كل الوضوح ، فسيرة الرشيد مستقيمة كل الإستقامة ، ظاهرها مثل باطنها ، تلتمع متألقة كما هي الشمس في وضح النهار ، منسجمة كل الإنسجام ، وتظهر منها بعد ذلك بعض التشوهات المزرية ، التي تتنافر مع سيرة الرشيد ، وتتناقض معها كل التناقض ، فلا تلبث هذه التشوهات عند عرضها على مجهر الحقيقة أن تتساقط لضعف المواد اللاصقة ، ولسوء طريقة الإلصاق واللحم .

لم تكن حياة الرشيـد خروجـاً على حياة الخلفـاء ـ خلفـاء المسلمين ـ ، ولم ينهج الرشيد نهجاً خاصاً ، لقد كان مقلداً فيما

يمكن له تقليده ، وكان مجتهداً فيما يتطلب الإجتهاد . وكان في أمره مثالاً للرجل المؤمن ، ومثالاً للإنسان المسلم ، يطلب العدل والحق ، وكان باستمرار صاحب القرار الحاسم ، ورجل الموقف الصعب ، يحكم الأمور باتقان رائع ، ويعد للأمور عدتها ، ويهتم بالأمور الكبيرة دون اهمال لدقائقها أو صغائرها ، فمستعظم النار من مستصغر الشرر .

وتبقى سيرة الرشيد ، رغم كل ما لحق بها وكل ما أضيف لها ، مشعلاً متألقاً في حياة العرب المسلمين خاصة ، ودنيا المسلمين عامة .

« مُحَمدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيْمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ »

صدق الله العظيم

الجزء ٢٦ ـ الفتح ـ الآية ٢٩

الفصل الثاني

١ ـ الرشيد القائد .
٢ ـ رجل الدولة .
٣ ـ الانسان المسلم المؤمن .
٤ ـ تاريخ الرجل في الأمة .
٥ ـ ليست قضية دفاع عن الرشيد .

١ ـ الرشيد القائد

إذا كانت العهود الأموية قد تميزت بصورة عامة أنها عهود فتوحات وأمجاد عسكرية ، فقد تميزت العهود العباسية ـ بصورة عامة أيضاً ـ على أنها عهود بناء للمجتمع الإسلامي ، وتوطيد لأركان المجتمع العربي ـ الاسلامي . ولهذا ، فليس غريباً أن تفتقر العهود العباسية المتتالية لتلك الأسماء البارزة التي خطفت أبصار الدنيا ببريقها ، واستأثرت باهتمام العالم لعظمتها من أمثال خالد بن الوليد وقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير وأضرابهم ممن يصعب حصرهم . غير أن ذلك لا يعني بداهة افتقار العهود العباسية للقادة الأكفاء ، ورجال الحرب البارزين . وإذا كان عهد الرشيد قد حفل بأسماء عدد من القادة من أمثال (هرثمة بن أعين) فقد ضمت كل فترة نماذج مماثلة ، وشخصيات قيادية منافسة ، فالمجتمع العربي ـ الاسلامي يبقى أبداً مجتمع حرب وسلم ، ولعل من طبيعة الأشياء أن يضم هذا المجتمع المبدعين في مجتمع السلم وبنائه ، قدر ما يضم الأكفاء في مجال الحرب وإدارتها . ولكن عدم حدوث مثل تلك الفتوحات المذهلة هو الذي

حَجَب شمس الأكفاء ، وأخفى ما يمتلكونه من القدرات . ولقد كان الرشيد ذاته من أبرز قادة الحرب ، فقد نذر حياته لتحقيق هدفين : (الغزو في الثغور ، والحج) وكلاهمـا جهد وجهـاد في سبيل الله وابتغاء لمرضاته . وقد تميزت قيادة الرشيد ، وفقاً لما سبق عرضه ، بمجموعة من الخصائص أبرزها :

أولاً : تعـاظم حجم الجيوش ، وزيـادة قدراتهـا ، وتوافـر الإمكانات الكبيرة لها .

ثـانياً : خـوض الحرب وفق مخـططات محكمة ، وطـرائق منظمة ، وأساليب مبرمجة .

لقد قاد الرشيد ضد نقفور ـ ملك الروم البيزنطيين ـ جيشاً زاد عدد أفراده على مائة ألف ، وقد لا تكون هناك حاجة لإظهار ما تطلبه مثل هذا التطور من كفاءة في قيادة الجيش وإدارة الحرب . غير أنه من المفيد الإشارة إلى أن هـذا التطور قـد جاء نتيجـة طبيعية لعـاملين متكاملين : أولهما زيادة قدرات الدولة العربية ـ الاسلامية زيادة كبيرة بسبب اتساع حدودها وتوافر القدرات البشرية والمادية . وثانيهما : زيادة ثقل التحـديات المفـروضة على الـدولة العـربية ـ الاسـلامية (خارجياً وداخلياً) مما دفع إلى تجييش الجيوش بمثل تلك القدرة وبمثل تلك القوة التي نادراً ما عرفتها العهود الأموية .

والرشيد في قيادته للحـروب الخارجيـة والداخليـة ، يسعى جهده لتجنب الحرب قدر المستطاع ، ويحاول تفاديها ، حتى إذا كان لا بد من خوضها ، خاضها بكل قسوتها ، وبكل عنفها ، فيزج لها القوات الكافية ، ويمهد الظروف لإحراز النصر الحاسم ، حتى إذا ما تم له ذلك ، عمل على معالجة جـذور الحرب وأسبـابها ،

ويحاول تضميد الجراح لإقامة علاقات طبيعية بناءة ومثمرة ، وعلى أسس واضحة ومتينة ، تهدف قبل كل شيء إلى ضمان أمن المسلمين ، وتوفير أسباب العزة لهم . وبذلك كانت حروب الرشيد محققة لما يطلق عليه اليوم اسم (السياسة الاستراتيجية ـ أو السياسة العليا) وهي السياسة التي تعنى لتحقيق أهداف السلم من خلال أعمال الحرب . ويظهر ذلك واضحاً الوضوح كله في قتال رشيد لنقفور ، كما يظهر في حروب الثغور ، وفي إخماد الفتن الداخلية .

يمكن على ضوء ما سبق ذكره فهم السبب الذي دفع الرشيد لإجراء أول فداء للمسلمين مع الروم ، ثم إعادة هذه العملية مرة بعد مرة حتى لم يبق في بلاد الروم مسلم . لقد نفذ الرشيد ما أمر الله به من ألا يكون للكافرين على المسلمين سلطاناً ، وألا يكون للمشركين على المؤمنين ولاية ولا حكماً ؛ فعمل على تحرير المسلمين من معاناتهم والتي وصلت حد اليأس وفقاً لما وصفها الشاعر العربي (وقالوا سجون المشركين قبورها) . وسواء تم افتداء أسرى المسلمين بالمال ، أو عن طريق مبادلة أسرى بأسرى ، فالنتيجة واحدة : عدم التخلي عن المسلمين أو تركهم تحت رحمة أعدائهم . ويمكن على ضوء ما سبق ذكره أيضاً فهم سبب الغضب الذي هيمن على الرشيد لما بلغه نقض نقفور للمعاهدة التي تم الاتفاق عليها ، وغدره بالمسلمين ؛ فقد كان الرشيد حريصاً الحرص كله على ضمان الاستقرار على الحدود مع الروم ، وترك الفرصة أمام المسلمين لبناء مجتمعهم والتعريف بفضائل دينهم ، وائتلاف القلوب ، وهذا ما لا يمكن بلوغه في ظروف الحرب والأحقاد . ولم يكن غريباً على الرشيد بعد ذلك أن يوجه الجيوش من فوره لوضع

الأمور في نصابها ، وتأديب نقفور . وهنا أيضاً تبرز فضيلة الرشيد في معالجة قضايا الحرب (السياسة الاستراتيجية) ؛ ذلك أنه عندما كتب له نقفور ملتمساً إرسال خطيبة ابنه ، أرسلها معززة مكرمة ، وأهدى إليها الهدايا ، وبالغ في الإحسان إليها ، فأظهر لنقفور شدة ما يلقاه من يغامر بإظهار العداء للمسلمين ، وما ينزل به من الشرور والنقم ، إلى جانب ما يناله من يصادق المسلمين من الخير والنعم ، فكان ذلك رادعاً للشر ، مستجلباً للخير .

والرشيد في سلمه وحربه ، يحاول الإمساك بالمبادأة أبداً ، ويحرص على تحقيق المباغتة باستمرار ؛ فعندما أعلن (نقفور) نقضه للصلح ، اعتمد على رداءة المناخ وسوء الأحوال الجوية . ولكن الرشيد وقف ضد الصعوبات ، فسار من فوره نحو بلاد الروم ، وأوغل فيها ، ودمر تجمعات الروم ، وخرب وأحرق ، وسبى وقتل ، حتى خضع نقفور وذُلَّ ، وحتى عاد صاغراً مستسلماً لمنطق القوة . وكان العامل الأول في نجاح الرشيد هو في إمساكه المبادأة ، وعدم تركها لعدوه . وكانت المباغتة هي العامل الثاني في نجاحه ، فقد بوغت الروم وملكهم بوقت الهجوم ، وبكثافة القوات المهاجمة ، وبأمكنة وقوع الهجمات (أهداف الهجوم للمسلمين) ، مما ساعد على حسم الصراع المسلح لمصلحة المسلمين . ولقد كانت المباغتة التي حققها الرشيد مركبة من محصلة المباغتة الزمنية والمكانية علاوة على مباغتة العمليات ـ في حجم القوى والوسائط ـ ، ولهذا فقد كان تأثيرها كبيراً على النتيجة العامة للصراع .

ولقد برزت في حروب الرشيد ظاهرة هامة هي الاعتماد على ما

يعرف اليوم باسم (**الخطة الخداعية**) **المرافقة** (**لخطة العمليات**) . فعندما وجه الرشيد قائده (هرثمة بن أعين) لقتال (علي بن عيسى بن ماهان) ، وجهه لينفذ خطة خداعية ـ تظاهرية ـ بحيث لا يعرف علي بن عيسى بعزله إلا بعد أن تكون كافة الأقاليم قد أصبحت خارج قبضته ، وإلا بعد أن يكون هرثمة قد وصل إلى (مرو) قاعدة خصمه ، وبذلك يفقد كل قدرة له على التحرك ، ويصبح مرغماً على الإستسلام . وكذلك فعل الرشيد عندما نكب البرامكة ، فقد اتخذ قراره لنكبتهم ، ووضع قراره موضع التنفيذ ، واتخذ الإجراءات الكفيلة لاستيعاب نتائج الأحداث، بحيث تم تنفيذ العملية بكاملها والانتهاء منها في ليلة واحدة . وإذا كان التنفيذ قد تم في ليلة واحدة ، فإن الاستعداد لهذه العملية ، واتخاذ كافة الإجراءات قد استغرق أشهراً طويلة ، فجاءت العملية أشبه ما تكون بما يعرف بالأزمنة الحديثة (بالانقلاب) . ولقد نجم عن الدقة الكبرى في التمهيد للعملية وفي تنفيذها ، أن وقف البرامكة وهم في حالة عجز كامل عن القيام بأي عمل . وعندما قال (يحيى بن خالد) لما بلغه خبر مقتل ابنه (جعفر) بأن (ابن الرشيد سيقتل أيضاً) كان هذا التهديد يفتقر إلى القدرة التي باتت مسلوبة ومشلولة . ويؤكد استعراض مسيرة الأعمال القتالية للرشيد أن اعتماده باستمرار على (**الخطة الخداعية**) كان خير عون له من أجل إنجاز الأعمال الكبرى بأقل جهد ممكن .

وإذا كان الرشيد ، قد وضع العمل المتكامل للخطة الخداعية ، فقد كان لزاماً عليه اتخاذ كافة (تدابير **الحيطة والأمن**) . ولهذا ، فإنه لم يكن غريباً أن يحتفظ الرشيد بسر العملية ، وكل عملية يريد تنفيذها ، لنفسه فقط ، ولا يبوح بها لأي إنسان ، ويضع

تفاصيلها بهدوء وصمت ، ومن غير أن يعرف أحد ما يريد ولا ماذا يفعل ؟ أو لماذا يفعل ما يفعله ؟ حتى إذا ما حانت اللحظة المناسبة للتنفيذ ، صدرت الأوامر والتعليمات للمنفذين ، مع ايضاحات كافية عن غاية العملية وأهدافها وطرائق تنفيذها ، فتقع المباغتة بكل ثقلها على رأس (الهدف) فتشله عن الحركة ، وتسلبه إرادة العمل ، ويخرج الرشيد منتصراً أعظم انتصار .

لقد توافرت للرشيد كافة المؤهلات القيادية ، فهو الرجل الذي يجيد الاصغاء لآراء مستشاريه ومعاونيه ، يجمع المعلومات الضرورية ، ويبحث عن حقائق المواقف ، ويتخذ قراره بنفسه ، ويضع المخططات المناسبة لمعالجة الأزمات ، ويضع لها المخططات التبادلية والخداعية ، ثم يصدر قراره على شكل أوامر واضحة وصريحة ، وينسق التعاون بين المنفذين ، فتأتي اعماله متكاملة بما يثير الاعجاب وحتى الذهول . وليس غريباً بعد ذلك أن يقف رجال الرشيد وأعداؤه ، موقف المتوجس خيفة باستمرار ، والحذر من كل سلوك قد لا يرضى عنه أمير المؤمنين .

لقد عرف الرشيد يقيناً ، أنه لا قبل له لبناء هيبة الدولة ، والمحافظة عليها ، من حرمان حاشية البلاط من فرض ذاتها على أمير المؤمنين ، أو توجيهه وفق أهواء متناقضة ، ووجهات نظر متباينة . وليس ذلك بالضرورة لفساد الحاشية أو سوء نواياها ، وإنما بسبب تباين وجهات نظرها ، فانفرد بصنع القرار . ولم يكن هذا القرار صحيحاً باستمرار ، فقد كان اختياره (لعلي بن عيسى بن ماهان) على سبيل المثال ، اختياراً خاطئاً ، ولكن الرشيد لم يكن ليترك الحبل على غاربه ، فإذا ما ظهر الخطأ في القرار المتخذ بادر على

الفور لإصلاحه والإحاطة بنتائجه .

وكان الرشيد في قيادته يعتمد على الأكفاء من الرجال ، والمخلصين من القادة ، ولكنه كان يشترط قبل الكفاءة وقبل الإخلاص ، الصلاح والتقوى ، وكان ذلك خير ضمان لإحقاق الحق ، وإرساء قواعد العدل ، في مجتمع عربي إسلامي لا وجود له إلا بالحق والعدل .

٢ ـ رجل الدولة

لقد أمضى الرشيد حياته مجاهداً في سبيل الله لدعم بنيان الدولة الاسلامية ، فإذا كانت هذه الدولة قد بلغت أقصى اتساعها ـ الأفقي ، إذا ما جاز التعبير ـ بحيث امتدت من الاندلس حتى الصين ، فقد كان لزاماً الإرتفاع ببناء هذه الدولة سمواً وشموخاً ، دونما أي تفريط فيما تم فتحه . ولعل الرشيد قد أدرك أن ما تعرضت له العهود الإسلامية المتتالية من الاضطرابات والأزمات ، منذ أيام الفتنة الكبرى (ومقتل أمير المؤمنين عثمان رضوان الله عليه) وحتى قيام دولة بني العباس ، إنما كان يعود وبالدرجة الأولى إلى ذلك الاتساع الأفقي الكبير في حدود الدولة الاسلامية ـ العربية . ولهذا فقد حدد الرشيد سياسة دولته بتوطيد دعائم الدولة العربية ـ الاسلامية . ولقد عرف الرشيد أيضاً أن السبب الأساسي فيما تعرضت له الدولة العربية ـ الإسلامية من الأزمات والاضطرابات ، إنما يعود لعدم فهم الاسلام فهماً صحيحاً في نصه وروحه ، في تشريعه وحدوده ، فانصرف لإقامة حدود الله على عباده ، وفي تنظيم علاقات المجتمع الاسلامي بعضه ببعض ، وفقاً لما جاء في كتاب

الله وسنة رسوله ، ووفقاً لما تطلبه العصر من اجتهاد . وقد ظهر ذلك واضحاً في وصايا الرشيد وأوامره إلى قادته (وبصورة خاصة وصيته لقائده هرثمة بن أعين) فهو يطالب باحقاق الحقوق ، ورفع المظالم ، وتأمين العدل حتى ينال كل انسان منه نصيبه .

وعرف الرشيد خطورة انتهاك حدود الله ، وإشاعة الظلم ، فيما كان يتعرض له المجتمع الاسلامي من أزمات واضطرابات ، فحرص الحرص كله على نفي الظلم ، والالتزام بحدود الله ، وهذا ما يفسر إقدام الرشيد على إرسال الأمان في كل اضطراب أو أزمة لتأمين الثائرين الذين ما خلعوا الطاعة ، وانحرفوا عن الجماعة ، إلا بسبب ظلم نزل بهم ، أو حيف أصابهم . وأما إذا كان في الأمر خروج على حدود الله أو انتهاك لها ، فإن العقاب الذي كان الرشيد ينزله بالعصاة شديداً ، صارماً ، لا رحمة فيه ولا شفقة .

لقد نشأت الدعوة العباسية في بلاد المشرق (خراسان ـ وبلاد فارس) وعرف الرشيد ما تضمه بلاد المشرق من المفاسد ، ولهذا لم يكن غريباً عليه أن يشخص بنفسه إلى بلاد المشرق لمعالجة اضطراباتها ، ووصفها بقوله : « . . . أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق ، والبغض لأئمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة ،مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفي السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت ولا خرجت عنها أبداً . . . » .

وعرف الرشيد خطورة تعدد مراكز القوى على هيبة الدولة وسلطتها ، فاقتدى بالمنصور عندما فتك بأبي مسلم الخراساني ، وأقدم على نكبة البرامكة ، وقتل جعفر بن يحيى . ولقد كان

البـرامكة يشكلون مـركزاً قـوياً من مـراكز القـوى ، وباتت السلطة بأيديهم ، وعلى الرغم من تظاهرهم بالخضـوع والطاعـة ، وتملق الـرشيد ومـداهنته ، إلا أنهـم كـانوا في الـوقت ذاتـه ، يستـأثـرون بالسلطة ، ويتصرفون بها في كثير من الأحيان بما يتناقض مع رغبة الرشيد ولم يكن باستطاعة الرشيـد احتمال المنـافسة في سلطتـه . وحتى هنا ، فإن الغيرة على السلطة لم تكن دنيوية ، وانما كانت دينية دنيوية في آن واحد .

لقد كان الزنادقة والملحدون يجدون في مظلة البرامكة حماية لهم ؛ وهذا عامل أساسي وحاسم كان في طليعة ما حرض الرشيد على نكبة البرامكة . إنه الغضب لله ، وهذا ما يؤكده إقدام الرشيد على قتل (إبراهيم بن عثمان بن نهيك) ، وتتبع الزنادقة في بـلاد خراسان وفي أقاليم المشرق .

لقد تعهد البرامكة الشعراء الفرس لدعم الشعوبية ، من أمثال (**مروان بن أبي حفصة**) الذي كان حفيداً لرجل من يهود خراسان ، والـذي تم التعـرض لبعض شعـره في البحـث ، وكـذلـك (**خلف الأحمر**) وهو ابن عبد من فرغانة أعتقه سيده ، بالإضافة إلى (**أبي نواس**) وهو ابن غسالة فارسية ، لم يسلم شيء حتى الدين نفسه من استهتاره ولهوه ، وبالاضافة أيضاً إلى (**أبي العتاهية**) الذي انقلب بعد إلى تزهيد الناس في الحياة الدنيا بشدة واندفاع بالغين ، حتى لقد أثار شكوك أولئك الذين أخذوا على عاتقهم تعقب الزنادقة .

لقد كانت نكبة البرامكة بمثابة تدمير لهذه الرموز التي حاولت رفـع تـظاهـرة التقـوى والعمـل من خـلالهـا لتـدميـر المجتمـع

العربي ـ الاسلامي . فقد اتقن هؤلاء الفرس لغة العرب ، وعرفوا حقيقة الدين الاسلامي . ولم يكن باستطاعتهم الهجوم على الاسلام ، فأخذوا في إشاعة الانحلال ، ولم يكن غريباً أن ينشط الخليفة الرشيد لملاحقة الزنادقة ومطاردتهم[1] والعمل على تدمير رموزهم ، ومرتكزاتهم .

لقد كان الرشيد ، في كل أعماله ، شديد الغيرة على حدود الله ، وليس من الغريب ان ينطلق أعداء الاسلام والمسلمين ، للتعرض له بعد أن أعلن الحرب على أفكارهم وإنحرافاتهم ، وبعد أن عمل على تدمير مظلتهم التي كانوا بها يحتمون ، وإليها يركنون ، ومن خلالها يعبثون . إنها مظلة البرامكة ، التي أضفيت عليها الفضائل كلها ، وأسدلت الحجب على رذائلها كلها .

---

(١) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية (١٩٠ ـ ١٩١) وجدير بالذكر أن تعاظم خطر الزنادقة والملحدين قد تعاظم بزيادة نفوذ الفرس في دولة العباسيين ، وهذا ما دفع الخليفة المهدي الى نصح ابنه موسى وتوصيته ، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه ، فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه ، وأمر بصلبه وقال: « يا بني ، إن صار إليك هذا الأمر ـ أي الخلافة ـ فتجرد لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني والمانوية ـ فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش ، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلالة الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإني رأيت جدك العباس في منامي ، نقلدني بسيفين ، وأمرني بقتل الاثنين » فقال موسى ـ الهادي ـ بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : « أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف » تاريخ الطبري ـ أحداث سنة ١٧٠هـ .

﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ هكذا كان الرشيد في إدارته للدولة ، فبقدر ما كان الرشيد ثقيل الوطأة على أعداء الدين ، بقدر ما كان رحيماً بالمسلمين ، يتجاوز عن خطيئاتهم ، ويعفو عن زلاتهم ، من غير أي تفريط بحقوق الدولة وهيبتها . ولعل أفضل ما يمثل ذلك موقف الرشيد من الناسك الذي اعترض طريقه ، ووجه إليه الموعظة بأسلوب يتنافى مع هيبة الحكم ، فاستضافه الرشيد ، وأكرمه ، ثم أظهر له خطأ سلوكه ، وحمله على الاعتراف بذنبه ، ثم تجاوز الخطأ ، فعفى عن الناسك ، واستغفر له .

ولقد كان الرشيد من آل البيت ، عربياً مسلماً ، تمثلت فيه أصالة العروبة وصدق الإيمان والاسلام ، فبقيت اللغة العربية هي لغة الأدب والتأليف ، وهي المهيمنة بفضل القرآن الكريم . ومع ذلك ، فقد ظهر عدد من الشعراء والأدباء ـ من ذوي الأصل الفارسي ـ الذين افتخروا ـ في منظومهم جهاراً ـ بتراث الآباء والأجداد، ومجدوا الفرس على حساب العرب . ولقد برزت هذه النزعة في صورة أشد وأوضح في النثر الذي كانت تتفتح براعمه في الوقت ذاته ؛ فقد وضع رجل فارسي يدعى علان ـ وكان نساخاً في مكتبة الرشيد ، وفي مكتبة ابنه المأمون من بعد ـ كتاباً خاصاً حشر فيه مثالب القبائل العربية المشتركة في الشعر القديم ، فلقب من أجل ذلك بالشعوبي ، كذلك تمثلت النزعة ذاتها في عدد وافر من آثار عصر الرشيد الكتابية . ولم يكن باستطاعة الرشيد تجاوز هذه الظاهرة ، فعمل على دعم المفكرين والعلماء العرب لمحاربة الانحراف ، فكان أن عمل الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري على وضع أساس فقه اللغة (في كتابه العين) والكسائي الكوفي ـ أحد قراء القرآن في القراءات السبعة ـ

الذي وضع الحدود النحوية ، مع الاهتمام بتسجيل تاريخ العرب ، قبل الاسلام وبعده ، بما يدفع افتراءات المخرصين ، واتهامات الحاقدين وهو ما فعله (محمد بن السائب الكلبي) وعنه نقل الطبري وسواه تواريخهم المعروفة ، ومثله (سيف بن عمر الاسدي) الذي صرف همه لتسجيل أحداث العرب منذ ظهور الاسلام وحتى عهد الرشيد .

لقد كان الرشيد أميراً للمؤمنين ، والمسؤول عن دولة العرب المسلمين ، فأخلص لأصالة عروبته وصفاء إسلامه في إدارته جميعها وفي أموره كلها . ولعل إخلاصه لأصالته هو ما دفعه لعقد ولاية العهد لابنه محمد الأمين (ابن زبيدة ، بنت جعفر المنصور) وتفضيله على أخيه عبد الله المأمون (ابن أمة فارسية ، يقال لها مراجل) وكذلك اخيه القاسم المؤتمن(والذي كانت أمه بدورها أم ولد يقال لها قصف) . ولقد قيل في ولاية العهد هذه تفسيرات شتى ، غير أن أقربها الى الواقع ، وأكثرها لصوقاً بطبيعة الرشيد ومفاهيمه ، هي الرواية التي تؤكد حرص الرشيد على ترك الحكم في قبضة عربية ـ إسلامية بعيدة قدر المستطاع عن المؤثرات الغربية ـ الفارسية ـ . ولعل فيما وقع من خلاف بعد ذلك (بين الأخوين الأمين والمأمون) وانتصار الفرس للمأمون ووقوفهم الى جانبه ، حتى تم لهم قتل الأمين ، ثم ما رافق ذلك من تعاظم نفوذ أهل الملل والنحل ، برهان كاف على ما كان يستشعره الرشيد من خطر على دولة العرب المسلمين ، مما دفعه لنكب البرامكة .

(**لا حكم إلا لله**) مقولة حق أطلقها الخوارج ، وأرادوا بها الباطل ، غير أنها تناسب موقف الرشيد من الحكم ،

فقد أراد الهادي صرف الخلافة عن الرشيد، وأخذ البيعة لابنه (جعفر بن موسى الهادي) غير أن إرادة الله كانت هي الأقوى ، فمات الخليفة موسى الهادي وآلت الخلافة إلى هارون الرشيد بعد أن زهد فيها ، وهم بالتنازل عن حقه فيها . كذلك عقد الرشيد لابنه محمد الأمين وألزم أخويه عبد الله المأمون والقاسم المؤتمن بالخضوع له ، وأخذ على الإخوة الأيمان المغلظة ، وأشهد عليهم كبار القادة ورجال الدولة وجمهور المسلمين . وكان هدفه من ذلك هو توطيد دعائم الدولة والنظر في مصلحة المسلمين ، وعدم السماح للفرقة والخلاف بتمزيق أمور المسلمين وتشتيتهم . غير أن محاولة الرشيد ذهبت بدورها أدراج الرياح ، ووقع ما كان يخشاه . ولقد اجتهد الرشيد لما فيه خير دولة المسلمين ، فله أجره ، غير أن اجتهاده لم يكن إلا برهاناً جديداً على مقولة الخوارج : (**الحكم لله ، ولا حكم إلا لله**) .

ولقد كان الرشيد يؤمن حقاً ، بأن الحكم لله وحده ، وأن لا حكم إلا لله، وتأتي كافة مواقفه وأقواله ـ وفقاً لما سبق عرضه ـ لتؤكد هذه الحقيقة . ولم يكن شعار الرشيد الذي نقشه على خاتم الخاصة : « **الله ثقتي آمنت به** » مجرد شعار إعلامي بقدر ما كان تعبيراً عن صحة يقين الرشيد وسلامة اعتقاده . ولهذا فقد كان الرشيد وهو يمارس دوره يعرف أنه وسيلة ، مجرد وسيلة، لتنفيذ شريعة الله وإرادته ، حتى وهو يحكم البيعة لأبنائه ، فقد صدرت عنه مقولات تؤكد أنه كان في شك من تنفيذ ما عقد عليه البيعة ، وما أبرمه ، رغم كل ما اتخذه من احتياطات .

واشتهر الرشيد في إدارته لأمور الدولة بطول الأناة ، والصبر ،

فلم يكن يترك الفرصة أمام الأحداث حتى تسبقه ، أو تدفعه لاتخاذ قرارات تفتقر إلى الحكمة والعدل ، وكان لا يأخذ بالظن والريبة ما يتناهى إليه من معلومات ، حتى يستوثق منها بنفسه ، هذا على الرغم من اختياره للعناصر الموثوقة . ولقد يذهل الانسان لدى قراءة تلك المواقف من طول أناة الرشيد مع ما كان عليه من المشاغل ، في معالجة موقف رجل ثائر ، أو التحقيق في اتهام رجل بالغدر . ولم يكن الرشيد ـ يقيناً ـ ليحمل نفسه ذلك العناء كله لولا إيمانه العميق بواجبه أمام الله عز وجل ، ولولا خوفه من حساب الله وعقابه .

لقد استوفت دولة المسلمين في عهد الرشيد مقوماتها ، وكان باستطاعة الرشيد الركون إلى الراحة ، والأخذ بأسباب الدنيا ونعيمها ، ولكن استعراض سيرة الرشيد يؤكد أنه ما ركن يوماً للراحة ، ولا عرف للتهاون أو الاسترخاء سبيلاً ؛ فكان في حركة دائمة ، يصرف ليله في الصلاة والعبادة ، ويمضي يومه في جهد وجهاد ـ ما بين حج وغزو ـ وصحيح أنه كان يعتمد على بعض من يشاركه اعباء الحكم ومسؤولياته ـ وهذا أمر طبيعي بسبب اتساع رقعة الدولة وتعاظم مشكلاتها ـ إلا أنه لم يترك الحبل على غاربه أبداً ، فكان حسابه عسيراً لكل من يخطىء في حق الناس ، شعوراً منه بكبر مسؤوليته أمام الله عن رعاية عباده .

٣ ـ الانسان المسلم المؤمن

يظهر الرشيد بعد ذلك إنساناً بسيطاً في حياته العامة والخاصة ، فهو يأخذ الأمور على هينتها ، ويسرها ، يركض حافياً يوم توفيت والدته الخيزران ، ويسرع إلى قبرها حتى يواريها لحدها ، ويتحدث إلى أركان دولته ببساطة ومن غير تكلف ، ولا يصطنع مع اعدائه التكلف ، بل هو ينطلق في التحدث إليهم بفطرته ، فيكتب لنقفور : « إلى نقفور كلب الروم » ويكتب إلى علي بن عيسى « يا ابن . . . » هذا مع ما وصف به الرشيد من شدة الحياء ـ حتى أنه كان من أرق الخلفاء وجهاً ـ وحتى أنه كان يخاطب الناس وعيناه في الأرض ، ما يرفع طرفه ، استحياء . وهو إذا تلقى الموعظة الحسنة ذاب رقة حتى تنهمر الدموع على لحيته ، وحتى يجهش بالبكاء ، دونما حرج ، وهو يكره النفاق والمداهنة في الحق .

كلف الرشيد خادماً ، من بعض خدام الخاصة ـ اسمه رشيد ـ بإدارة أملاك الرشيد في الثغور والشأمات ، وتواترت الكتب وهي تشيد بحسن سيرة هذا الخادم ، وأمانته ، ولياقته في التعامل مع الناس ، فأمر الرشيد بتقديمه والإحسان إليه ، وضم ما أحب أن يضم إليه من

ضياع الجزيرة ومصر . وجاء هذا الخادم ، فدخل على الرشيد وهو يأكل سفرجلاً قد أتى به من (بلخ) وهو يقشره ويأكل منه . وقال الرشيد للخادم مخاطباً : « ما أحسن ما انتهى إلينا عنك ، ولك عندنا ما تحب ، وقد أمرت لك بكذا وكذا . . . وليتك كذا وكذا . . . فسل حاجتك » فتكلم الرجل ، وذكر حسن سيرته في الناس حتى قال : « **لقد أنسيتهم والله يا أمير المؤمنين سيرة العُمرين ! » فغضب الرشيد ، وأخذ سفرجلة فرماه بها ، وقال : « يا ابن اللخناء ! العمريْن ، العمرينْ ، العمريْن ! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز ، أنحتملها لعمر بن الخطاب ؟ »** . . .

اشتهر أحد أحفاد عمر بن الخطاب (واسمه عبد الله بن محمد) بالتقى والصلاح ، ورغب الرشيد أن يقوم بزيارته ، وامتحانه ، ومعرفة حقيقته ، غير أنه قاوم هذه الرغبة بسبب كراهيته لأبناء عبد الله بن محمد . وتحدث يوماً في مجلس خاصته فقال : « **والله ما أدري ما آمر به في هذا العُمري ؟ ! أكره أن اقدم عليه وله خلف أكرههم ، وإني لأحب أن أعرف طريقه ومذهبه ، وما أثق بأحد أبعثه إليه** » فقال عمر بن بزيغ والفضل ابن الربيع : « نحن يا أمير المؤمنين ! » . ووافق الرشيد ، وخرجا إلى موضع من البادية يقال له (خلص) وأخذا معهما أدلاء ، حتى إذا وردا عليه في منزله أتياه مع الضحى ، فإذا هو في المسجد ، فأناخا راحلتيهما ومن كان معهما من أصحابهما ، ثم أتياه على زي الملوك من الريح والثياب والطيب ، فجلسا إليه وهو في مسجد له ، فقالا له : « يا أبا عبد الرحمن ، نحن رسل من خلفنا من أهل المشرق ، يقولون لك : اتق الله ربك ، فإذا شئت فقم ! » فأقبل عليهما ، وقال : « ويحكما !

فيمن ؟ ولمن ؟ » قالا : « أنت ؟ » فقال : « والله ما أحب أني لقيت الله بمحجمة دم امرىء مسلم ، وإن لي ما طلعت عليه الشمس » فلما أيسا منه قالا : « فإن معنا شيئاً تستعين به على دهرك » فرد بقوله : « لا حاجة لي فيه ، أنا عنه في غنىً » فقالا له : « إنها عشرون ألف دينار » فقال : « لا حاجة لي فيها » قالا : « فأعطها من شئت ! » قال : « أنتما ، فأعطياها من رأيتما ، ما أنا لكما بخادم ولا عون » . فلما يئسا منه ركبا راحلتيهما ، حتى أصبحا مع الخليفة ، فوجدا الرشيد ينتظرهما ، فلما دخلا عليه حدثاه بما كان بينهما وبينه ، فقال : « ما أبالي ما أصنع بعد هذا » . وحج عبد الله في تلك السنة ، فبينا هو واقف على بعض الباعة يشتري لصبيانه ، إذا الرشيد يسعى بين الصفا والمروة على دابة ، إذ عرض له عبد الله وترك ما يريد ، فأتاه حتى أخذ بلجام دابته ، فأهوت إليه الأجناد والأحراس ، فكفهم عنه هارون ، فكلمه ، ورأى الناس دموع الرشيد وهي تسيل على معرفة دابته ، ثم انصرف .

وكما كان الرشيد بسيطاً في حياته العامة ، فكذلك كان شأنه في حياته الخاصة ، مع أهل بيته ، مع زوجه وأبنائه ، مع اخوته وأقاربه ، باراً بهم ، رقيقاً معهم ، عطوفاً عليهم ، يخاف الله فيهم ، ويخاف من سطوة الله عليهم ، ولهذا فقد حرص على تنشئة أبنائه على الخير والهدى ، فأوكل تربيتهم وتنشئتهم إلى من يثق بهم من العلماء والصلحاء (من أمثال الكسائي) وسواه .

إنه تلميذ مدرسة القرآن الكريم ، تلميذ مدرسة الاسلام ، في أعماله وأقواله ، في حياته العامة والخاصة ، يحاول قدر استطاعته الاقتداء بنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسير على سننه ، غير

أنه لم يأخذ نفسه بالشدة التي أخذ بها الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة العصر الذي عاشه الرشيد ، فقد أفاض الله على المسلمين من خير الدنيا ، فأصبح لكثير من الناس وسائل العيش الجيد في مأكلهم ومشربهم ومسكنهم ، فلا غرو إن عاش الرشيد حياة الناس في عصره . وقد بقي على كل حال ، أقل ترفاً مما كان عليه وزراؤه ـ البرامكة ـ بل ومما كان عليه بعض ولاته في المشرق ، ممن كانوا يكنزون المال ، في حين كان الرشيد ينفقها من غير حساب ، ومن غير خوف ، على أهل الصدقات وأصحابها .

ولقد تميز عصر الرشيد بوفرة الشعراء ، وكان المديح هو وسيلتهم للتكسب ، غير أن هؤلاء في مديحهم قد أجمعوا ـ من غير اتفاق فيما بينهم يقيناً ـ على امتداح نقاط معينة ، أهمها ولع الرشيد بالجهاد في سبيل الله ، والقيام بفرائض الاسلام ، وإقامة الحدود ، ورعاية المسلمين والاهتمام بأمورهم ، وإحقاق الحق والعدل . ولا ريب أن هذا الاجماع في الرأي ، إنما يعبر عن حقيقة الرشيد ، الانسان المسلم المؤمن ، ولكن هل كان باستطاعة الرشيد أن يكون غير ذلك ؟ . أجل ! كان باستطاعته أن يكون غير ذلك ولكنه عندها لن يكون أميراً للمؤمنين ، ولا خليفة للمسلمين . ولقد أطاع الرشيد شريعة الله والتزم بها ، فأطاعه عباد الله ، وأخلص لدينه فأخلص أعوانه له ، وخاف الله ، فخافه الناس ، ووثق بالله فوثق به الناس ، فكان مثالاً للعبد المسلم المؤمن .

٤ ـ تاريخ الرجل في الأمة

لقد كانت حياة الرشيد صورة لحياة الأمة الإسلامية خلال تلك الحقبة التاريخية ، وعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ الاهتمام بأصول الفقه ، والاهتمام باللغة العربية ، ورعاية الشعر والشعراء ، والاهتمام بالغناء والشعر الغنائي ، إلى جانب الاهتمام بالبناء والعمارة ، وليس ذلك إلا مؤشراً ثابتاً على استقرار الدولة العربية الاسلامية ، وثبات قواعدها ، وارتفاع مكانتها ، وذيوع صيتها ، الأمر الذي حمل ملك فرنسا وأمبراطور الغرب على إقامة علاقات مع بغداد ـ على أمل أن يجد فيها عوناً له ضد الدولة الأموية الاسلامية في الأندلس ـ وقد أفاد الرشيد مقابل ذلك من هذه العلاقات للكيد لدولة الروم ـ البيزنطيين ـ والتي كان في حرب دائمة معها . وفي الواقع ، فإن هذه العلاقات لم تثمر عن شيء يذكر ، فلا الرشيد ـ والأغالبة في أفريقية ـ قد وجهوا حرابهم ضد إخوانهم المسلمين في الأندلس ، ولا شارلمان قدم شيئاً ضد دولة الروم ـ البيزنطيين ـ . غير أن هذه العلاقات ، وفي مثل ذلك العصر ، إنما تشير إلى الهيبة المعنوية الكبيرة التي بلغتها دولة العرب المسلمين أيام الرشيد .

كذلك ، لم تكن أيام الرشيد خالية من الكدر أو المتاعب ، لقد كانت البؤر المتفجرة تندفع كالبراكين الثائرة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . والملاحظ أنها كانت طبيعة واحدة ، تعود في أساسها إلى توافر بعض عوامل الاضطراب في بناء المجتمع العربي - الاسلامي ، مع وجود تحريض قوي - يمثله الشعوبيون - . ولقد كان ذلك أمراً طبيعياً ومتوقعاً من مجتمع حديث العهد بالاسلام ، انتقل بصورة مباغتة من أوضاع تقليدية عاشها طويلاً إلى أوضاع جديدة ، حرمت مراكز القوى التقليدية من سلطانها ونفوذها . ألم تقاوم قريش ذاتها دعوة الحق والخير ، دعوة الاسلام ؟ الم تتعرض المراكز اليهودية في يثرب لرسالة السماء ؟ فلا غرابة إذن أن تستمر مراكز القوى هذه وأمثالها في محاولاتها للنيل من الاسلام وأهله كلما أنست من نفسها القدرة على الثورة والتمرد . ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة ظهور حركات تمرد مماثلة قادها النصارى والمولدون في الأندلس ، فقام امراء بني أمية في معالجتها والقضاء عليها ، وشغلت عليهم حياتهم ووجودهم ، تماماً كما شغلت الرشيد طوال حياته ، على الرغم من تباعد الشقة ما بين المشرق والمغرب .

هل كان ذلك دليل ضعف أم هو دليل قوة في بناء المجتمع العربي - الاسلامي ، وفي تكوين دولة العرب المسلمين ؟ ! . للإجابة على هذا السؤال ، لا بد من القول : ترى هل كان باستطاعة رسالة السماء أن تظهر وأن تنتصر لولا مقاومة المشركين لها منذ البداية ؟ وهل كان باستطاعة الاسلام أن يتطهر من أدرانه وأن يتخلص من أوشابه لولا حروب الردة ؟ وهل كان باستطاعة الاسلام والمسلمين أن يحددوا عوامل الفتن وأصحابها ، وأن يفرزوهم ويعرفوا نواياهم

وأهدافهم لولا الفتنة الكبرى التي حاول أمير المؤمنين عثمان رضوان الله عليه أن يفتديها بدمه ؟ . لقد جاء الاسلام تعبيراً عن الحياة ذاتها ، وعلاجاً لمشكلاتها ، وانسجاماً مع واقعها ، والحياة ليست إلا حركة دائمة وصراعاً مستمراً بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين النور والظلام . وعز تعالى من قائل ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . . . ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مختلفين**﴾ـ **وصدق الله العظيم**[1] . غير أن الظاهرة المثيرة هي نجاح الرشيد في إخماد الفتن جميعها بسرعة مذهلة . فقد تمكن من القضاء على بعضها من قبل أن تبدأ ، أو يستفحل خطرها ، واستطاع تدمير بعضها الآخر بجهد مناسب وخلال فترة زمنية قصيرة . ليس ذلك فحسب ، بل إن الرشيد استطاع ائتلاف أولئك الذين كانوا قد خرجوا عليه ، ونجح في اجتذاب آخرين وإخضاعهم لسلطانه . ولقد كان ذلك برهاناً على كفاءة الرشيد ، غير أن هذه الكفاءة لا تتناقض مع ما منحه الله من توفيق للرشيد في أعماله وسداد لآرائه .

لقد اعتبر عهد الرشيد بحق من أزهى عصور الدولة العربية ـ الاسلامية ، ويركز المؤرخون والباحثون والكتاب على ما تميز به هذا العهد ، من إشاعة للأمن ، ومن ثراء شمل معظم أفراد المجتمع الاسلامي ، ومن ازدهار اقتصادي ، زراعي وعمراني ، علاوة على تلك الحركة الفكرية (في العلم والأدب والفن) . غير أن شيئاً أهم من ذلك كله لم يحظ بما يستحقه من الإهتمام ، ذلك هو التطور

---

(١) سورة هود ـ الجزء ١٢ ـ الآية ـ ١١٨ .

في فهم الدين على أيدي علماء الكوفة والبصرة وبغداد، وكذلك إقبال قادة الفرس وأمراؤهم وملوكهم ـ فيما وراء النهر ـ على اعتناق الاسلام ديناً، ورفع رايته على أقاليمهم، بعد طول امتناع ومقاومة، ولم يكن ذلك إلا برهاناً على انتصار الإسلام بفضائل أهله وأمير المؤمنين؛ « **فإسلام اربعمائة بطل من طبرستان في يوم واحد على يد الرشيد** »[1] قد يعتبر فخراً للرشيد، لا سيما وأن إقليم طبرستان بقي طوال العهود الاسلامية، ومنذ الأيام الأولى للفتح من الأقاليم الشديدة المقاومة للعرب المسلمين، ومن الأقاليم المؤهلة دائماً للعصيان والتمرد. غير أن إسلام هؤلاء إنما هو تأكيد على نجاح عهد الرشيد في رفع دعائم الدولة العربية ـ الإسلامية مما دفع المترددين والمتشككين للدخول في دين الله أفواجاً.

وعلى هذا، فاذا كان عهد الرشيد قد اعتبر من أزهى العصور الإسلامية، فذلك بسبب تطبيق شريعة الله على عباده، وبسبب الحرص على إقامة حدود الله بالعدل، وبسبب ما ناله المسلمون من العزة تحت راية الاسلام، والعزة لله ولعبادة المؤمنين، فلا أسير يشكو ذل الأسر، ولا مظلوم يعاني من نير الظلم، ولا خائف يؤرقه فقدان الأمن.

وأئمة الهدى يقومون بواجبهم في الدعوة لله، وتعريف عباده بشرائع الدين وعباداته وحدوده. وإذا كان لعهد الرشيد أن يزهو بشيء، فحق له أن يزهو بوفرة أولئك الذين أغناهم الله بفضله، فانطلقوا للعمل بإخلاص، من أجل إحكام بنيان المجتمع العربي ـ

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٣١٦.

الإسلامي . ولقد عمل الرشيد من جانبه على مد يـد العون لهؤلاء حتى يتمكنوا من التفرغ لما وهبهم الله له ، غير أنهـم أعرضوا عن الدنيا ومتاعها ، واكتفوا من دنياهم بما أسبغه عليهم الرشيد من الدعم المعـنوي ، وبما قـام بـه الـرشيـد من الالتـزام بنصـائـح الـدعـاة المخلصين ، ووصايا الأتقياء الصالحين .

هل يمكن مقارنة عهد الرشيد بعهد عبد الملك بن مروان أو بعهد عبد الرحمن الناصر ـ أمير المؤمنين في شبه جزيرة الأندلس ـ؟

هناك ثمة أوجه للتشابه ، سواء من حيث اضطراب أحوال الأقاليم ثم إخضاع ثائرتها ، أو من حيث ما وصلت إليه دولة العرب المسلمين في عهـودهم من القوة والعـزة ، أو من حيث ما نعم بـه المسلمون في عهودهم من الاستقرار والأمن والرفاه ، بل أن هناك ثمة تشابـه في الشخصيات القيادية ، والملامح العامة لطباعهم وسلوكهم وأعمالهم وإنجازاتهم . إنهم جند الله ، جاءوا في فترات متباعدة أو مـواطن متباينة ليحققوا هدفاً واحداً : الاضـطلاع بأمـانة الإسـلام وأهله ، والرعاية للاسلام وأهله ، ودفع بنيان الدولة العربيـة الاسلاميـة في مشرق العالم ومغربه ، ولله المشرق والمغرب جميعاً .

لا ريب أن مـا حفظه التـاريخ لـدولة العـرب المسلمين أيام الرشيد ، لا يمثل إلا غيضاً من فيض ، ولا يؤلف إلا قليلاً من كثير ؛ فلقد كانت حياة الرشيد القيادية حافلة بجـلائل الأعمـال ، وعظيم الإنجازات . غير أن ما حفظه التاريخ كافياً لإبراز معالم المجتمـع العربي ـ الاسلامي ، خلال تلك الفترة الزمنية الـزاهية ، وتحـديد الأسس العـامة لسيـاسة الـرشيد في إدارة أمـور السلم والحـرب ، والوصول بالتالي إلى نتيجة واضحة وهي أن دولة الرشيد لم تكن إلا

استمراراً لبناء السلف ، منذ ظهور الاسلام وحتى عهد الرشيد ، وليست إلا تطويراً لها . فقد سار الرشيد على خطى أسلافه ، ونهج نهجهم ، وأبدع مثلهم ، واجتهد فيما كان يجب عليه الاجتهاد بشأنه لمعالجة ما كان يستجد من أمور الحياة . إنه البناء الضخم ، يرتفع لبنة في كل عهد ، بفضل الجهود الرائعة التي يبذلها جمهور العرب المسلمين خاصة والمسلمون عامة ، بالتعاون الوثيق مع خليفتهم ، ومع جهاز إدارة الدولة العامل تحت إشراف أمير المؤمنين . وهكذا لم يكن عهد الرشيد خروجاً على نهج خلفاء المسلمين ، أو انحرافاً عنه ، ولولا ذلك لما استطاع الرشيد السير قدماً في بناء الدولة ، ولما استطاع إنجاز ما أنجزه .

ومقابل ذلك ، فقد حفظ التاريخ فيما حفظه إضافات نابية لا علاقة لها يقيناً بحياة الرشيد . وقد يكون لزاماً التماس الأعذار لأولئك الذين حرصوا على تسجيل كافة أحداث التاريخ بأمانة وموضوعية ، وفقاً لما تناهى إلى سمعهم علمها ، ووفقاً لما وصلت إليهم دقائقها وتفاصيلها ، ويبقى على الباحث واجب الأخذ بما يراه منسجماً مع السيرة العامة للرشيد وعهده ـ رجلاً ودولة ـ وعزل ما يتناقض مع هذه السيرة أو يتنافر معها . إذ ليس من المعقول ، ولا المقبول أن يصدر عن الرجل الذي يقضي ليله ساهراً في عبادة الله ، قائماً على الصلاة ، باحثاً عن رضاء الله ورضوانه ، أن يرتكب ما نهى الله عنه . وليس من المعقول ولا المقبول أن يقدم الرجل الذي يحرص على إقامة حدود الله على انتهاك حد من حدود الله .

وقد يكون فيما سبق عرضه من سيرة الرشيد في حياته العامة والخاصة ، برهان كاف على صحة هذه الحقيقة .

٥ ـ ليست قضية دفاع عن الرشيد

هل القضية بعد ذلك هي قضية الدفاع عن الرشيد ؟ أم هي قضية البحث عن المتعة في قصص الغابرين هروباً من واقع لم تعد له علاقة بالأيام الغابرة ؟ أم هي قضية تعلم من التجربة التاريخية وإفادة منها ؟ .

لقد مضى الرشيد للقاء وجه ربه ، بعد أن عاش حياة الدنيا ، وحمل معه إلى آخرته أعماله ، وترك للدنيا سيرته يتحدث بها الزمان ـ وكل زمان ـ . ولا يضير الرشيد في شيء إن تحدث الناس عنه بما يكره ، وكتب عنه من كتب بما هو منه براء ، وألصق به من افترى ما ألصق ، فأمره إلى الله فيما فعله ، وقد حرص طوال حياته على بلوغ رضى الله وطاعته . غير أنه لا بد من التعرض لحقيقة لا مجال لإنكارها ، تتعلق بدنيا المسلمين بأكثر مما هي متعلقة بخلفاء المسلمين .

لقد وضع اليهودي (عبد الله بن سبأ) النظرية المتكاملة للطعن في الاسلام والكيد لأهله ، عندما تظاهر في الإسلام ، ثم

أخذ في بذر بذور الفتنة ، فأوصى أتباعه بقوله : « **انهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر . .** »[1] .

لقد كان من المحال على أصحاب الفتنة الكبرى **الطعن** في الإسلام ، وهو في ذروة اندفاعته ، وكان من المحال عليهم أيضاً الطعن في رسول الله ﷺ ، فأخذوا في الطعن في ولاة أقاليمهم ـ في الكوفة والبصرة ومصر ـ فكان ذلك وسيلتهم للطعن في أمير المؤمنين عثمان رضوان الله عليه . وبطعنهم في أمير المؤمنين عثمان ، استطاعوا الطعن بالخلافة ، زاعمين أن خلفاء الرسول ﷺ قد أخذوها بغير حق : « **من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، ووثب على وصي رسول الله ﷺ ، وتناول أمر الأمة ـ وهم يقصدون بوصي رسول الله أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ـ** »[2] .

ولقد استمر أعداء الاسلام والمسلمين الأخذ بهذه النظرية والعمل بها وتطبيقها وتطويرها وفقاً لكل موقف من المواقف . ولقد كان ازدهار دولة المسلمين وتعاظم قوتها في عهد الرشيد عاملاً أساسياً في ثورة حقد الحاقدين على الاسلام وأهله ، فأخذوا في التماس الوسيلة للطعن بالاسلام وأهله ، وزاد من حقد هؤلاء الحاقدين إقدام الرشيد على (نكبة البرامكة) ومطاردة الزنادقة والملحدين ، وإعمال القتل فيهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٣٤١ .
(٢) المرجع السابق ٤/٣٤٠ .

لقد كان من المحال على هؤلاء الطعن في سياسة الرشيد ، أو في إدارته للدولة ، أو في رعايته لشؤون المسلمين ، أو في دفاعه عن الاسلام وأهله ، أو في جهاده ضد اعداء الدين في الخارج والداخل ، ذلك أن أعمال الرشيد في هذه المجالات واضحة لكل ذي عينين ، ساطعة كما الشمس في وضح النهار . ولما لم يجد هؤلاء وسيلة للطعن في الرشيد ، لجؤوا إلى حياة الرشيد الخاصة ، وهي حياة مغلقة ، فاختلقوا القصص يروونها همساً ، ويتناقلونها غمزاً ولمزاً في سرهم ، حتى يتناولها الجهلة ويشيعونها وهم يجهلون أهدافها ومراميها .

ويبرز هنا سؤال يفرض ذاته فرضاً : لقد بدأ الطعن بالرشيد ـ يقيناً ـ منذ أن أشهر الرشيد سيفه ضد البرامكة ، واستمر ذلك فيما بعد ، فلماذ لم يعمل الرشيد على استئصال مثيري الفتن ؟ ولماذا لم يضرب على أيدي الفساق المفسدين ؟ .

للإجابة على مثل هذه التساؤلات لا بد من الأخذ ببعض الحقائق المعروفة :

أولها : لم يكن من الاسلام في شيء الأخذ على الظن والشبهات ، وقد ظهر واضحاً في سيرة الرشيد أنه كان يمارس التحقيق بنفسه عندما كان الأمر يتعلق باتهامات وشكوك ، حتى لو كانت القضية تتعلق بمؤامرة على الحكم ، وحتى لو كان الشهود هم أقرب الناس للمتهم ، ابنه أو خادمه ، ملتزماً في ذلك بالنظرية الحقوقية الحديثة : (الظن أو الشك هو في مصلحة المتهم ، وأنه لا جريمة بدون ادانة واضحة وحاسمة) . وكان أعداء الاسلام والمسلمين أذكى من ان يتركوا أثراً ثابتاً يفضحهم ، أو برهاناً أكيداً

يدينهم ، ثم هم إلى ذلك يتظاهرون بالإسلام ، وليس باستطاعة الرشيد الولوغ في دماء المسلمين ما لم تكن له حجة على استحلال دمائهم . ولا يشكل الهمس في الظلام يقيناً برهاناً كافياً لاستحلال دم الأظناء . ثم ألم يقدم المشككون على افتراء (حديث الإفك) حتى في عهد رسول الله ﷺ ، فماذا فعل الرسول الأعظم ضدهم ؟ لقد تركهم ليوم الحساب العسير في مواجهة خالقهم ، وهكذا فعل الرشيد .

ثانيها : لقد عرف الرشيد يقيناً أن ما يختلقه المخرصون ، وما يشيعه المفترون ، هو عمل لا يستهدف شخصه أو شخص أقرب الناس اليه ـ مثل زوجه زبيدة ـ بقدر ما كان يستهدف الإسلام وأهله ، ولذا فقد انصرف الرشيد بجهده كله ، لدعم أصحاب الفكر الإسلامي من الدعاة والفقهاء والصلحاء ، يتولون بأنفسهم حماية الدين والتعريف به وشرح مضمونه وتطبيق قواعده وشرائعه وسننه . وكان الأمر المهم بالنسبة للرشيد هو دفع القافلة للسير ولينبح الكلاب كما يشاؤون ، فلن يستطيع أعداء الدين إطفاء نور الشمس ، فليقولوا ما يشاؤون ، ولن يكون نصيبهم في النهاية إلا الفشل والخذلان ، وإلا الموت كمداً وحسرة .

ثالثها : وكان الرشيد يؤمن أن المعركة بين الإسلام وأهله وبين أعداء الاسلام انما هي معركة فكرية ، عقائدية ، ولم يكن الإرهاب الفكري أو القمع العقائدي ضرورياً إلا عندما يصل إلى مرحلة انتهاك حدود الله أو التحريض على انتهاكها ، وليس على الرشيد ورجال دولته في هذا المجال إلا إعطاء القدرة الحسنة والأمثولة الصحيحة لما يجب أن يكون عليه أمير المؤمنين ورجال دولته والمجتمع الاسلامي

عامة . ويؤكد العرض السابق ـ وكذلك القراءات في نهاية هذا البحث ـ ما كان عليه الرشيد ورجال دولته من الأمثولة الرائعة للانسان المسلم المؤمن . ليس ذلك فحسب ، بل كان الرشيد ورجال دولته يحرصون الحرص كله على السير في ركاب هذه الحرب الفكرية ـ العقائدية ـ بأعمالهم وأقوالهم ، بممارساتهم ومناقشاتهم ، ألم يقل الرشيد لأحد ندمائه : « إياك والصلاة والدين ولك ما شئت بعد ذلك ؟ » . فهل بعد ذلك مجال للشك أو الريبة ؟ .

رابعها : لم يكن الرشيد يقيناً يعطي للشائعات المدسوسة ، والافتراءات المغرضة ، أكثر مما تتحمله ، وذلك لمعرفة الرشيد بنفسه ، ومن عرف نفسه لم يضره ما قاله الناس عنه وإذا كان الرشيد قد حرص الحرص كله على إبقاء سيرته طاهرة نقية ، خوفاً من الله وابتغاء لرضوانه ، وإذا كان الرشيد أيضاً قد عالج هذه الظاهرة في إطار شامل باعتبارها ظاهرة من ظواهر الحرب ضد الإسلام وأهله ، فإنه لم يعد له ما يخافه أو يخشاه من مقولة حاقد أو دسيسة مفتون .

تلك هي بعض الحقائق لا كلها ، والقضية ـ مرة أخرى ـ ليست قضية دفاع عن الرشيد ، فأمره في دنياه إلى ربه ، يعرف ظاهره وباطنه ، يثيبه بما هو أهل له ، غير أن القضية هي البحث عن معرفة الأسباب التي حملت سيرة الرشيد بأكثر مما تحتمله .

وسيرة الرشيد ليست سيرة للمتعة ، ولو أنها تتضمن قدراً غير قليل من الإمتاع ، إذ أنها صورة من صور الماضي ، تلتقي فيها الألوان جميعها ، والأشكال كلها في مجتمع توافر له من التناسق والتناغم بقدر ما توافر له من التناقض والتنافر ، إنها صورة الحياة بكل ما تزخر فيه من الألوان والأشكال فوق مساحة جغرافية شغلت قسماً

غير قليل من مساحة الكرة الأرضية . وبالإمكان تصور عاصمة الإسلام ـ بغداد ـ وقد ضمت إليها الوفود والجاليات والرواد والباحثين والعلماء والفقهاء من كل دنيا المسلمين ، ومن غير دنيا المسلمين ، كلهم يجد في عاصمة الإسلام بغيته ومطلبه . وفي هذا المجتمع الهائج ، الصاخب بضجيج الحياة ، لا بد وأن يجد فيه أمثال أبي نواس ، وأبي العتاهية ، وتجار الجواري ، والموصلي المطرب ، وسواهم سوقاً رائجة لبضاعتهم ، فماذا كان نصيب الرشيد من ذلك كله ؟ .

لم يعرض الرشيد عن حياة الناس في عصره ، ولم يرفض كل ما حدث من تطور ، بل أخذ منه بقدر ، وبما لا يتنافى مع الشرع ، وبما لا يتجاوز حدود الله ؛ فقد سمح للموصلي أن يؤنس بعض لياليه بأشعاره الرقيقة ، وسمح لأبي النواس بحضور بعض مجالسه ، عندما كان يجد في نفسه حاجة لطرح هموم الدنيا ومتاعبها ، ولكن كل ذلك بقدر محدود جداً ، إذ لم يكن للرشيد متسع من الوقت للاستمتاع بما في دنيا الناس ، ولعل قصته مع الموصلي وزرياب ـ وفقاً لما وردت على لسان الدين الخطيب في القراءات في ملحق هذا البحث ـ تؤكد ذلك . فالموصلي وسواه لا يحظون من مقابلة الرشيد إلا بنذر يسير ، والرشيد رغم إعجابه بزرياب والتوصية به ، ينساه في غمرة الأحداث ، حتى إذا ما تذكره بعد حين ، كان زرياب قد ارتحل إلى الأندلس . هذا إلى جانب أن اعطيات الرشيد لهذه الطبقة لم تكن تحمل صفة (السرف أو البذخ) إذ كان أصحاب هذه الطبقة كثيراً ما يحتجون بسوء حالهم عند مقارنة أوضاعهم مع أقرانهم في الأندلس وفي بقية أقطار العالم الاسلامي .

هكذا ، لم يكن الرشيد رجل دنيا ، وإنما كان يأخذ من الدنيا بقدر لا يصل بحال من الأحوال إلى المساس بدينه ، ولا تبلغ بحال من الأحوال درجة صرفه عن رعاية أمور المسلمين في دنيا المسلمين على رحبها واتساعها .

وبعد ، فليس هناك مجال للمقارنة أو الموازنة بين أمراء المؤمنين ، وبين الملوك والأباطرة في دول غير المسلمين ، ولكن أليس من الغريب حقاً تناقل الأساطير الموضوعة والأحاديث المفتراة على الرشيد وعصره ، حتى هذا اليوم ، وتجاهل ما كان عليه ملوك الفرس وأباطرة البيزنطيين من الغرق في متاع الدنيا ولهوها وعبثها ؟ وهل تجاوز الرشيد في حياته ومأكله ومشربه ومسكنه حدود جزء مما يعيشه الإنسان العادي في الأزمنة المعاصرة ؟ مرة أخرى ، لا مجال للمقارنة أو المفاضلة أو الموازنة سواء بالنسبة للرشيد في عصره ، أو بالنسبة للرشيد مع من سبقه ومن تبعه من أمراء المسلمين ومن غير المسلمين ، غير أن مثل هذه المقارنة لو جازت لأنصفت الرشيد وعصره ، ولكفت ألسنة السوء والأقلام السوداء من العبث والاستهتار .

يبقى من المهم القول بأن الرشيد وعصره ، كان وسيبقى أبداً مفخرة من مفاخر العرب المسلمين خاصة والمسلمين بصورة عامة . ففيه عاش المسلمون في عزة وقوة ومنعة ، وفيه بدأ الجهد لتطوير المجتمع الاسلامي وتحقيق التكامل بين العناصر والفئات المكونة له والمركبة منه ، وفيه بدأ العلماء والفقهاء في برمجة اللغة العربية ، لغة الذكر ، لغة القرآن الكريم ، حتى تصبح سهلة المتناول ، طيعة المأخذ على الناس الذين أخذوا في الدخول في الإسلام أفواجاً .

لقد قيل بأن الرشيد هو رجل الدنيا وواحدها، وهو كذلك حقاً، فليس في العالم الاسلامي رجل كالرشيد، ولا رجل كعبد الملك ابن مروان ، ولا خليفة كالصديق وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم . كان كل واحد منهم نسيجاً وحده ، غير أنهم جميعا تلاميذ مدرسة واحدة ، مدرسة القرآن الكريم ، مدرسة الاسلام ، عاش كل واحد منهم عصره ، وأدى أمانته ، واضطلع بواجبه ، ومضى للقاء ربه راضياً مرضيا .

ويبقى الرشيد منارة في عالم الإسلام والمسلمين ، شأنه شأن معظم أمراء المؤمنين الذين ملأوا الدنيا عدلاً وخيراً ورحمة ، وكانوا حرباً على الظلم والشر والفسوق . ولا يضير الرشيد في شيء إن ألحقت بسيرته التشوهات البشعة ، ولكن يضير ذلك المسلمين في شتى أقاليمهم وتباين أزمنتهم ، ذلك لأن هذه التشوهات هي التعبير السلبي والتصوير العملي للحرب ضد المسلمين منذ ظهور الاسلام وحتى آخر الدنيا ما بقي الإسلام في صراع ضد أعدائه ، وما بقيت شريعة الله حرباً على أعداء الله .

ولينصرن الله من ينصره . والعاقبة للمتقين .



قــــراءات

١ ـ مما قيل في مدح الرشيد .
٢ ـ قصيدة الحجاج بن يوسف التيمي في نقض نقفور لعهد الرشيد .
٣ ـ قصيدة اسماعيل بن القاسم ـ أبي العتاهيـة ـ في نقض نقفور لعهد الرشيد .
٤ ـ الرشيد ، وأمه الخيزران .
٥ ـ قصة الرشيد والمغني زرياب .
٦ ـ لسـان الدين الخـطيب يحكي قصة الـرشيد وليلة من لياليه .
٧ ـ ما قيل من شعر في نكبة البرامكة .
٨ ـ كتب الرشيد بالبيعة لأبنائه في البيت الحرام .
٩ ـ وصية الرشيد إلى قائده هرثمة بن أعين .

قراءات (١)

مما قيل في مدح الرشيد

دخل ابن أبي حفصة ، واسمه مروان ، على الرشيد سنة إحدى وثمانين ومائة ، فأنشده[١] :

وَسُدت بهارون الثُّغورُ فأُحكِمتْ
به من أُمور المسلمين المرائِرُ

وما انفَكَّ معقوداً بنصر لواؤه
له عسكرٌ عنه تشظَّى العساكرُ

وكل ملوك الروم أعطاهُ جزيةً
على الرغم قَسْراً عَنْ يَدٍ وهو صاغرُ

لقد ترك الصفصافَ هارون صفصفاً
كأن لم يُدَمِّنْهُ مِنَ الناس حاضر

أناخ على الصّفصاف حتى استباحَهُ
فكابَرَهُ فيها ألجُ مُكابِرُ

---

(١) تاريخ الطبري ٣٤٨/٨ ـ ٣٤٩ وابن الاثير : ١٣١/٥ ـ ١٣٢ .

إلى وجهه تسمو العيونُ وما سمت
إلى مثل هارونَ العيونُ النواظرُ
ترى حَوْلهُ الأملاك من آلِ هاشِمٍ
كما حَفَّت البَدْرَ النجوم الزواهرُ
يسوقُ يَدَيه من قُريش كِرامُها
وكلتاهما بحرٌ على الناس زاخِرُ
إذا فقد الناسُ الغمام تتابَعَت
عليهم بكفيك الغيومُ المواطِرُ
على ثقة ألقت إليك أُمورَها
قريش ، كما ألقى عصاه المسافرُ
أمورٌ بميراث النبي وَلِيتَها
فأنت لها بالحزم طاوٍ وناشِرُ
إليكم تناهت فاستقرت وإنما
إلى أهله صارت بِهِنَّ المصايرُ
خلفت لنا المهديَّ في العدل والنَّدى
فلا العرف منزورٌ ولا الحكم جائرُ
وأبناء عباسٍ نجوم مضيئةٌ
إذا غاب نجمٌ لاح آخر زاهرُ
عليَّ بني ساقي الحجيج تتابعت
أوائل من معروفكم وأواخِرُ
فأصبحت قد أَيقنت أن لست بالغاً
مدى شكرٍ نعماكمْ وإني لشاكِرُ
وما الناسُ إلا واردٌ لحياضِكم
وذو نَهَل بالرِّيِّ عنهن صادرُ

حصُونُ بني العباس في كل مأزق
صدور العوالي والسيوف البواتِرُ
فطوراً يَهُزُّونَ القواطِعَ والقنا
وطوراً بأيديهم تَهُز المخاصِرُ
بأيدي عظام النفع والضر لا تني
بهم للعطايا والمنايا بوادرُ
ليهنكُمُ الملكُ الذي أصبحت بكم
أسِرَّته ، مختالَةً والمنابرُ
أبوكَ ولِيُّ المصطفى دون هاشِمٍ
وإن رغَمت من حاسِدِيك المناخِرُ

قراءات (٢)

قصيدة الحجاج بن يوسف التيمي في نقض نقفور لعهد الرشيد

نَقَضَ الذي أعطيته نِقفورُ
وعليه دائرة البَوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه
غُنْمٌ أتاك به الإله كبير

فتح يزيد على الفتوح يَؤُمنا
بالنصر فيه لواؤك المنصور

فلقد تباشَرَتِ الرَّعيَّة أن أتى
بالنقض عنه وافِدٌ وبشيرُ

وَرَجَتْ يمينكَ أن تعجل غزوةً
تشفي النفوسَ مكانُها مذكورُ

أعطاك جزيتَهُ وطأطأ خدَّه
حذر الصوارم والردى مَحذورُ

فأجرْتَه من وَقْعها وكأنَّها
بأكفِنا شُعَلُ الضِرام تطيرُ

وصرفتَ بالطَّولِ العساكر قافلاً
عنه وجارك آمنٌ مسرورُ
نِقفورُ إنك حين تغدر إن نأى
عنكَ الإمام لجاهل مغرور
أظننتَ حين غدرتَ أنكَ مُفلتُ
هبلَتْكَ أمك ما ظننت غرورُ !
ألقاك حَيْنُك في زواجر بَحْره
فَطمتْ عليكَ مِنَ الإمام بحورُ
إن الإمامَ على اقتسارِكَ قادرٌ
قَرُبَت ديارُكَ أم نأتْ بكَ دورُ
ليسَ الإمام وإن غفلنا غافلاً
عما يسوسُ بحزمه ويديرُ
مَلِكٌ مجرَّد للجهاد بنفسِهِ
فعدوه أبداً به مقهورُ
يا من يريد رضا الإله بسعيه
والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفعُ من يَغُشّ إمامهُ
والنصح من نصحائه مشكورُ
نصحُ الإمام على الأنام فريضةٌ
ولأهلها كفارةٌ وطهورُ

* * *

وقال التيمي أيضاً :

لَجَّتْ بنِقفورَ أسباب الرَّدى عَبثاً
لما رأتْهُ بِغيلِ الليثِ قد عبثا

ومن يزُرْ غيلَهُ لا يخلُ من فزعٍ
إن فات أنيابَهُ والمخلبَ الشبثا

خانَ العهودَ ومن ينكث بها فعلى
حَوْبائِهِ، لا على أعدائه نكثا

كان الإمام الذي تُرجَى فواضِلُه
أذاقَهُ ثمرَ الحِلْم الذي وَرثا

فَردّ أُلفَتَهُ من بَعد أن عطفت
أزواجُهُ مَرهاً يبكينهُ شعثا[1]

* * *

(١) تاريخ الطبري ٨/٣٠٨ ـ ٣١٠ وابن الاثير ٥/١١٨ ـ ١١٩ .

قراءات (٣)

قصيدة إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية في نقض نقفور لعهد الرشيد

إمام الهدى أصبحت بالدين مَعْنياً
وأصبحت تسقِي كلَّ مستمطرٍ رياً
لك اسْمانِ شُقَّا من رشادٍ ومن هدىً
فأنتَ الذي تدعى رشيداً ومهدياً
إذا ما سخطت الشيءَ كان مُسخَّطاً
وإن ترضَى كان في الناس مَرضياً
بسطت لنا شرقاً وغرباً يَد العلا
فأوسعت شرقياً وأوسعت غربياً
ووشيتَ وجه الأرضِ بالجودِ والنَّدَى
فأصبح وجهُ الأرضِ بالجود مَوشياً
قضى الله أن يصفو لهارونَ ملكُهُ
وكان قضاء الله في الخلق مقضياً

تحلَّبَتِ الدنيا لهارون بالرضا
فأصبح نِقفورُ لهارونَ ذِمّياً[1]

* * *

ولما حقق الرشيد نصره على نِقفور قال أبو العتاهية :

ألا نادتْ هِرقْلَةُ بالخراب
من المَلِكِ الموَّفقِ بالصواب
غدا هارون يَرْعدُ بالمنايا
ويَبْرقُ بالمذكرة القضابِ
ورايات يحل النصر فيها
تمر كأنها قِطعُ السَّحابِ
أمير المؤمنين ظفِرت فاسلم
وأبشر بالغنيمة والإيابِ

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٣٠٨/٨ ـ ٣١٠ وابن الاثير ١١٨/٥ ـ ١١٩ .

قراءات (٤)
الرشيد ـ وأمه الخيزُران

كانت الخيزران أم ولد يمانية جرشية ، وكانت عاقلة لبيبة دينة ، كان دخلها في السنة ، ستة آلاف وستين ألف ألف درهم ، فكانت تنفقها في الصدقات وأبواب البر . وكانت ذات شخصية قوية ، فلما كانت أول خلافة موسى الهادي ، أخذت تتدخل في أموره ، على نحو ما كانت تفعله أيام أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي ، فأرسل إليها : ألا تخرجي من خَفَر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ، ولك بعد ذلك طاعة مثلك فيما يجب لك . غير أنها استمرت في سيرتها ، فكانت كثيراً ما تكلمه في الحوائج ، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته . وانثال الناس عليها ، وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها ، وكان يتصل بموسى وصول القواد إلى أمه الخيزران ، يؤملون بكلامها في قضاء حوائجهم . فلما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده ، قال يوماً وقد جمعهم : **أيما خير ؟ أنا أو أنتم ؟** قالوا : « بل أنت يا أمير المؤمنين ! » قال : « **فأيما خير أمي أو أمهاتكم ؟** »

قالوا : « بل أمك يا أمير المؤمنين ! » قال : « **فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان وقالت أم فلان ؟؟** » قالوا : « ما أحد منا يحب ذلك ! » قال : « **فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها ؟** » فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة ، فشق ذلك عليها . وجاءت الخيزران تكلم ابنها موسى الهادي في أمر لم يجد إلى إجابتها اليه سبيلاً ، فاعتل بعلة ، فقالت : « لا بد من إجابتي !» قال : « لا أفعل ! » قالت : « فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك » . فغضب موسى وقال : « ويل على ابن الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك ! » قالت: «إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً» قال: إذاً والله لا أبالي» وحمي وغضب، فقامت مغضبة، فقال: «**مكانك تستوعبي كلامي ، والله ، وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟. إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي** » فانصرفت ما تعقل ما تطأ ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها ، وحلفت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة . وقيل إن موسى بعث إلى أمه الخيزران بأرزَّةٍ ، وقال : استطبتُها فأكلت منها فكلي منها . فقالت خالصة خادمة الخيزران : أمسكي حتى تنظري ، فإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه . فجاءوا بكلب فأكل منها ، فتساقط لحمه ، فأرسل إليها بعد ذلك : كيف رأيتِ الأرزة ؟ فقالت : وجدتها طيبة . فقال : « **لم**

تأكلي ، ولو أكلتِ لكنتُ قد استرحت منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟ » .

لم يطل عهد موسى الهادي ، فقد مات وهو ابن ست وعشرين سنة ، ولم تزد مدة خلافته على أربعة عشر شهراً ، وتولى الرشيد الخلافة ، وكان أثيراً عند أمه ، حتى أنها قالت يوماً : « إن بقاءه أحب إليَّ من الدنيا بجمع ما فيها » . وكان الرشيد بدوره براً بها ، عطوفاً عليها ، غير أنها لم تمض في عهد الرشيد سوى ثلاثة أعوام ، فاختارتها يد المنون ، وحزن الرشيد لفراقها حزناً شديداً ، حتى أنه رؤي يومها ، وعليه جبة سعدية ، وطيلسان خرق أزرق ، قد شد به وسطه ، وهو آخذ بقائمة السرير حافياً ، يعدو في الطين والوحل من المطر الذي كان في ذلك اليوم ، حتى أتى مقابر قريش ، فغسل رجليه ، ثم دعا بخف وصلى عليها ، ودخل قبرها ، ثم خرج من المقبرة ووضع له كرسي فجلس عليه ، وتمثل بقول متمم بن نويرة الأبيات المشهورة التي أولها :

وكنا كندماني جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا[١]

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٢٠٥ ـ ٢٠٧ و ٢٣٨ وابن الاثير ٥/٧٩ و ٨٧ .

قراءات (٥)

قصة الرشيد ، والمغني زرياب

وفد إلى الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي ابن نافع ـ الملقب بزرياب ـ وهو لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه ، وحلاوة شمائله . شُبِّهَ بطائر أسود غرد عندهم . وكان شاعراً مطبوعاً ، وعالماً بالنجوم ، وقسمة الأقاليم السبعة ، واختلاف طبائعها وأهويتها ، وتشعب بخارها وتصنيف بلادها وسكانها ، مع ما سنح له من فك كتاب الموسيقى ، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها . وهو الذي زاد في أوتار عوده وتراً خامساً ، واخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر ، معتاضاً به من مرهف الخشب ، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع ، وطول سلامة الوتر . . .

كان من خبر زرياب في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً ، وهُدِيَ من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق ، وإسحاق لا يشعر بما فتح عليه ، إلى أن جرى للرشيد مع

إسحاق الموصلي خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغن غريب مجيد للصنعة ، لم يشتهر مكانه إليه ، فذكر له تلميذه زرياب ، وقال : إنه مولى لكم ، وسمعت له نزعات حسنة ، ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس ، إذا أنا وقفته على ما استغرب منها ، وهو من اختراعي واستنباط فكري ، أحدس أن يكون له شأن . فقال الرشيد : **هذا طلبتي فأحضرنيه لعل حاجتي عنده** . فأحضره ، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب . وسأله الرشيد عن معرفته بالغناء ، فقال : نعم أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك . فأمر الرشيد بإحضار عود أستاذه إسحاق ، فلما أدني إليه وقف عن تناوله وقال : « لي عود نحته بيدي ، وأرهفته بإحكامي ، ولا أرتضي غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لي أمير المؤمنين في استدعائه » فأمر الرشيد بإدخاله إليه . فلما تأمله الرشيد ، وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه قال له : « ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ » فقال زرياب : « إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده ، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي » فرد عليه الرشيد بقوله : « ما أراهما إلا واحداً » فقال زرياب : « صدقت يا مولاي ! ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ، ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه ، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن ، يكسبها أناثة ورخاوة ، وبَمُّها ومثْلَثُها اتخذتهما من مُصران شبل أسد ، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب

المتعاورة بها ما ليس لغيرها » فاستبرع الرشيد وصفه، وأمره بالغناء، فجس ، ثم اندفع فغناه :

يـا أيـهـا الـمـلك الـمـيـمـون طـائـره
هـارونُ راح إلـيـك النـاس وابـتـكـروا

فلما أتم النوبة ، طار الرشيد طرباً وقال لإسحاق : « **والله لولا أني أعلم من صدقك لي على كتمانه إياك لما عنده ، وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل ، لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه ، فخذه إليك ، واعتن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فإن لي فيه نظراً** » فسقط في يد إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب صبره ، فخلا بزرياب وقال له : « يا علي ! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة لا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ، وترتقي أنت فوقي ، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدي ، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخير في اثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عني في الأرض العريضة ، لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً إلي ، فخذ الآن حذرك مني ، فلست والله أبقي عليك ، ولا أدع اغتيالك باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك » . فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ، فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ، ومضى يبغي

مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحاق منه .

وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه ، فأمر إسحاق بحضوره ، فقال : « ومن لي به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يُزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين ، فإنه كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه » . فسكن الرشيد إلى قول إسحاق ، وقال : « **على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير** » .

مضى زرياب إلى المغرب ، فنسي بالمشرق خبره ، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك ، شهرته بالصقع الذي قطنه ، ونزعت إليه نفسه وسمت به همته . فأم أمير الأندلس (الحكم) ، وخاطبه ، وذكر له نزاعه إليه واختياره إياه ، ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها ، ويسأله الإذن في الوصول إليه . فسر الحكم بكتابه ، وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه وإجمال الموعد ما تمناه . فسار زرياب نحوه بعياله وولده ، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء ، فلم يكد يصل إليها حتى وردته الأخبار بوفاة الحكم ، فهم بالرجوع إلى المغرب ، غير أن المغني منصور اليهودي رسول الحكم إليه منعه من ذلك ، ورغبة في قصد عبد الرحمن بن الحكم ، الذي تولى إمارة الاندلس بعد أبيه ، وكتب منصور اليهودي إلى الأمير عبد الرحمن بخبر زرياب ، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه ، والسرور بقدومه عليه ، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ، ويوصلوه

إلى قرطبة ، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانة للحُـرَم ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وأكرمه غاية الإكرام ، وأدنى منزلته ، وبسط أمله[1] .

(١) توفي زرياب سنة ٢٣٨ هـ قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً . وانظر المزيد عن حياة زرياب وفنه في نفح الطيب ١/ ٣٤٤ و٣/ ١٢٢ ـ ١٣٣ .

قراءات (٦)

لسان الدين الخطيب يحكي قصة الرشيد وليلة من لياليه

قال لسان الدين : « سهر الرشيد ليلة ، وجهد ندماؤه في جلب راحته ، وإلمام النوم بساحته ، فشحت عهادهم ، ولم يغن اجتهادهم . فقال : اذهبوا إلى طرق ، سماها ورسمها ، فمن عثرتم عليه من طارق ليل فاستدعوه . فطاروا عجالى ، وتفرقوا ركباناً ورجالاً . فلم يكن إلا ارتداد طرف ، حتى أتوا بالغنيمة التي أصابوها . لقد جاءوا بشيخ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، وعليه ثوب مرقوع . فلما مثل سلَم ، فأشار إليه الرشيد بالقعود ، وابتدره سائلاً : ممن الرجل ؟ فقال الشيخ : فارسي الأصل ، أعجمي الجنس ، عربي الفصل ، وسأل الرشيد : بلدك وأهلك وولدك ؟ فرد الشيخ : أما الولد فولد الديوان ، وأما البلد فمدينة الإيوان . وعاد الرشيد للسؤال : النحلة ، وما أعملت إليه الرحلة ؟ فقال الشيخ : أما الرحلة فالاعتبار ، وأما النحلة فالأمر الكبار ! وسأل الرشيد : فَنَّك ، الذي اشتمل عليه دنك ؟ ورد الشيخ : الحكمة فني الذي جعلته أثيراً وأضجعت فيه فراشاً وثيراً ، وسبحان الذي يقول : ﴿ وَمَنْ يُؤتَ

الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْراً كثيراً ﴾[1] ، وما سوى ذلك فتبع ، ولي فيه مصطاف ومرتبع . **فتعاضد جذل الرشيد وتوفر ، كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر ، وقال : ما رأيت كالليلة أجمعَ لأمل شارد ، وأنعمَ بمؤانسة وارد . يا هذا إني سائلك عن هذا الأمر الذي بلينا بحمل أعبائه ، ومنينا بمراوضه إبائه . فقال الشيخ : هذا الأمر قلادة ثقيلة ، ومن خطة العجز مستقيلة ، ومفتقرة لسعة الذّرع ، وربط السياسة المدنية بالشرع ، يفسده الحكم في غير محله ، ويكون ذريعة إلى حله ، ويصلحه مقابلة الشكل بشكله ، ومن لم يكن سبعاً آكلاً ، تداعت سباع إلى أكله .**

قال الرشيد : أجملت ففصل ، واقسم السياسة فنوناً ، واجعل لكل لقب قانوناً ، وابدأ بالرعية وشروطها المرعية . ورد الشيخ : «**رعيتك ودائع الله تعالى قِبَلَكَ، ومرآة العدل الذي عليه جَبلكَ، ولا** تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التي وهب لك ، وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم ، وكفايته التي تكفيهم ، تقويم نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها ، أخذاً يحوط مالها ، ويحفظ عليها كمالها ، ويقصر عن غير الواجبات آمالها ، حتى تستشعر عليتها رأفتك وحنانك ، وتعرف أوساطها في النصب امتنانك ، وتحذر سفلتها سنانك ، وحذر كل طبقة منها أن تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها . وسد فيها سبل الذريعة ، وأقصر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة . . .

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٦٩ .

ثم قال : **والوزير الصالح أفضل عددك ، وأوصل مددك ، فهو الذي يصونك عن الابتذال ، ومباشرة الأنذال** ، ويثب لك على الفرصة ، وينوب في تجرع الغصة ، واستجلاء القصة ، ويستحضر ما نسيته من أمورك ، ويغلب فيه الرأي بموافقة مأمورك ، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه حتى يستوفيه . واحذر مصادقة تياره ، والتجوز في اختياره ، وقدم استخارة الله تعالى في إيثاره ، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره ، وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك ، معقود الرضى والغضب برضاك وصولتك ، زاهداً عما في يديك ، مؤثراً لكل ما يُزْلَفُ لديك ، بعيد الهمة ، رفيع القدر ، معروف البيت ، وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب ، واجتنب منهم من يرى في نفسه إلى الملك سبيلاً ، أو يقودُ من عيصِه للاستظهار عليك قبيلاً ، أو من كاثر مالكَ ماله ، أو من تقدم لعدوك استعماله ، أو من سمت لسواك آماله . . .

وأما الجند ، فاصرف التقديم منهم للمقاتلة ، والمكايدة والمخاتلة ، واستوف عليهم شرائط الخدمة ، وخذهم بالثبات للصدمة ، وأوف ما أجريت لهم من النعمة . ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه ـ شجاعته ـ وول عليهم النبهاء من خيارهم ، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم . ولا توطئهم الدعة مهاداً ، وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً ، ولا تلين لهم في الاغماض عن حسن طاعتك قياداً . . . واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان ، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ، ويملك حركاتها بالتقويم ، وَرُتَبَها بالميزان القويم . ومن تثق بإشفاقه على أولادها ، ويشتري رضى الله تعالى بصبره على طاعته

وجلادها . فإذا استشعرتَ لها هذه الخلال ، تقدمتك إلى مواقف التلف، واثقة منك بحسن الخلف . . .

وأما العمال - الولاة - فإنهم ينبؤون عن مذهبك ، وحالهم في الغالب شديدة الشبه بك . . . فعرفهم في أمانتك السعادة ، وألزمهم في رعيتك العادة ، وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم في الاتصاف : بالعدل ،والإنصاف،وأحلهم بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية . وقفهم عند تقليد الأرجاء ، مواقف الخوف والرجاء ، وقرر في نفوسهم أن أعظم ما به إليك تقربوا ، وفيه تدربوا ، وفي سبيله أعجموا وأعربوا ، إقامة حق ودحض باطل . . .

ولا يزهدنك في المال كثرته ، فتقل في نفسك أثرته ، وقس الشاهد بالغائب ، واذكر وقوعِ ما لا يحتسب من النوائب . فالمال المصون أمنع الحصون . ومن قل ماله قصرت آماله ، وتهاون بيمينه شماله . والملك إذا فقد خزينه ، أخنى على أهل الجدة التي تزينه ، وعاد على رعيته بالاجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساء معتاد عيشه ، وصغر في عيون جيشه ، ومنوا عليه بنصره ، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه ، وتربط آمال أهل السلاح به . . . وما ينفق في سبيل الشريعة وسد الذريعة مأمول خلفه ، وما سواه فمتعين تلفه . . .

واستخلص لنواديك الغاصة ، ومجالسك العامة والخاصة ، من يليق بولوج عَتَبها والعروج لرتبها . أما العامية ، فمن عظم عند الناس قدره وانشرح بالعلم صدره ، أو ظهر يساره ، وكان لله تعالى إخباته وانكساره ، ومن كان للفتيا منتصباً ، وبتاج المشورة معتصباً . . . **واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل**

المتـألقة ، والمصـابيح المتعلقـة ، وعلى قدر تعـاهدهـا تبذل من الضياء ، وتجلو بنورها صور الأشياء. وفرغها لتحبير ما يزين مدتك ويحسن من بعد البلاء جدتك ، وبعناية الأواخر ذكرت الأُول ، وإذا محيت المفاخر خربت الدول . . .

واعلم أن بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان .

واعلم أن كرامة الجور دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة ، والغلبة بالخير سيادة ، وبالشر هوادة ، واعلم أن حسن القيام بالشريعة يحسم عنك نكاية الخوارج ، ويسمو بك إلى المعارج . . . **ولتكن ثقتك بـالله تعالى أكثـر من ثقتك بقـوة تجدهـا ، وكتيبة تنجـدها ، فـإن الإخلاص يمنحك قوى لا تكتسب ، ويمهد لك مع الأوقات نصراً لا يحتسب . . .** » .

ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف ، وعموده يريـد أن ينقصف قال : يا أمير المؤمنين ، بحر السياسة زاخر ، وعمر المتمتع بناديك مستأخر ، فإن أذنت في فن من فنون الأنس يجذب بالمقـاد ، إلى راحة الرقاد . وأجاب الرشيد : أما وقد استحسنا ما سردت ، فشأنك وما أردت . . .

استـدعى الشيخ عـوداً ، فأصلحـه حتى حمده ، وأبعـد في اختبـاره أمـده ، ثم تغنى بصـوت يستـدعي الانصـات ، ويصـدع الحصاة ، ويستـفز الحليم عن وقاره . . . ثم أحال اللحن إلى لون التنويم ، فأخذ كلٌ في النعاس والتهويم ، فخاط عيون القوم بخيوط النوم ، وعمر بهم المراقد ، كأنما أدار عليهم الفراقد ، ثم انصرف ،

فما علم به أحد ولا عرف . ولما أفاق الرشيد جد في طلبه ، فلم يعلم بمنقلبه ، فأسف للفراق ، وأمر بتخليد حِكَمِهِ في بطون الأوراق . فهي إلى اليوم تتلى وتنقل ، وتجلى القلوب بها وتصقل . . .[1] .

(١) مقتطفات من (نثر لسان الدين الخطيب) في عرض مستفيض ـ يمكن الرجوع إلى النص الكامل في نفح الطيب ٦/٤٣١ ـ ٤٤٥ .

قراءات (٧)

ما قيل من شعر في نكبة البرامكة

١ ـ قتل جعفر بن يحيى ليلة السبت ـ اول ليلة من صفر ـ وفي ذلك قال الرقاشي :

أيا سبتُ يا شر السُبوتِ صبيحةً
ويا صفر المشؤوم ما جئت أشأما
أتى السبتُ بالأمر الذي هَدَّ ركننا
وفي صفرٍ جاء البلاء مصمما

٢ ـ وقال الرقاشي ، وذكر أن هذا الشعر لأبي نواس :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا
وأمسك من يُجْدي ومن كان يَجْتَدِي
فقل للمطايا قد أمنتِ من السُّرى
وطي الفيافي فدفداً بعد فدفدِ
وقل للمنايا : قد ظفرتِ بجعفرٍ
ولن تظفري من بعده بمسَوَّدِ

وقـل لـلعـطايـا بعـد فـضـل تـعـطلي
وقـل لـلرزايـا كـل يـوم تـجـددي
ودونـك سـيـفـاً بـرمـكـيـاً مـهـنـداً
أصـيـب بـسـيـف هـاشـمـي مـهـنـدِ

٣ ـ وفيهم قال أيضاً في شعر له طويل :

إن يـغـدر الـزمـن الـخـؤون بـنـا فـقـد
غـدر الـزمـان بـجـعـفـر ومـحـمـد
حـتـى إذا وضـح الـنـهـار تـكـشـفـت
عـن قـتـل أكـرم هـالـك لـم يـلحـد
والـبـيـض لـولا أنـهـا مـأمـورة
مـا فـلَّ حـد مـهـنـد بـمـهـنـد
يـا آل بـرمـك كـم لـكـم مـن نائـل
ونـدى ، كـعـد الـرمـل غـيـر مـصـرد
إن الـخـلـيـفـة ، لا يـشـك ، أخـوكُـمُ
لـكـنـه فـي بـرمـك لـم يُـولدِ
نـازعـتـمـوه رضـاع أكـرم حـرة
مـخـلـوقـة مـن جـوهـر وزبـرجـد
مـلك لـه كـانـت يـدٌ فـيـاضـة
أبـداً تـجـود بـطـارف وبـمـتـلَدِ
كـانـت يـداً لـلجـود حـتـى غـلهـا
قـدرٌ فـأضـحـى الـجـود مـغـلول الـيـد

٤ ـ وفيهم قال سيف بن إبراهيم :

هــوت أنجمُ الـجَـدوى وشلت يــد الـنــدى
وغــاضت بحــور الـجــود بعــد الـبــرامــك
هــوت أنــجــمُ كــانــت لأبــنــاء بــرمــكٍ
بهــا يعــرف الـحــادي طــريق الـمســالــك

٥ ـ وقال ابن أبي كريمة :

كــلُّ مــعــيــرٍ أعــيــرَ مــرتــبــةً
بــعــد فــتــى بــرمــك عــلى غــرر
صــالــت عــلـيــه مــن الــزمــان يــدٌ
كــان بــهــا صــائــلاً عــلى الــبــشــر

٦ ـ وقال العطوي أبو عبد الرحمن :

أمــا والــلـه لــولا قــول واشٍ
وعــيــنٌ لــلـخـلـيـفـة لا تــنــام
لــطفنــا حــول جــذعــك واستـلمنــا
كـمــا لـلـنــاس بــالـحَـجــر استــلام
عــلى الــدنيــا وســاكـنهــا جـمـيعــاً
ودولــة آل بــرمــكٍ الــســلامُ

٧ ـ وقال أبو العتاهية في قتل جعفر :

قــولا لــمــن يــرْتــجــي الـحــيــاة أمــا
فــي جــعــفــر عــبــرةٌ ويحــيــاهُ !
كــانــا وزيــري خــليــفــة الــله هــا
رون هــمــا مــا هــمــا خــليــلاه

فذاكم جعفر برُمَّتهِ
في حالق رأسه ونصفاهُ
والشيخ يحيى الوزير أصبح قد
نحاه عن نفسه وأقصاه
شُتِتَ بعد التجميع شملُهُمْ
فأصبحوا في البلاد قد تاهوا
كذاك من يسخط الإله بما
يُرضي به العبدَ يجزه اللهُ
سبحان من دانت الملوك له
أشهد أن لا إله إلا هوُ
طوبى لمن تاب بعد غِرَّتِهِ
فتاب قبل الممات ، طوباهُ

* * *

قراءات (٨)

كتب الرشيد بالبيعة لأبنائه في البيت الحرام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين ، في صحة من عقله ، وجواز من أمره ، طائعاً غير مكره . إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي ، برضاً مني وتسليم ، طائعاً غير مكره ، وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها[1] وبريدها ، وبيوت أموالها ، وصدقاتها وعُشرها وعشورها وجميع أعمالها ، في حياته وبعده . وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضاً مني وطيب نفسي ، أن لأخي عبد الله بن هارون عليَّ الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي ، وتسليم ذلك له ، وما جعل له من

(١) الطراز : ما ينسج من الثياب للسلطان ، ويطلق على الموضع الذي تنسج فيه الثياب اسم (الجياد) وكان للطراز دور مثل دور ضرب النقود .

ولاية خراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطعية ، أو جعل له من عقدة[1] أو ضيعة من ضياعه ، أو ابتاع من الضياع والعُقد ، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلي أو جوهر ، أو متاع أو كسوة ، أو منزل أو دواب ، أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موفراً مسلماً إليه ، وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً .

فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين ، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرماسين .

وإن يمضي عبد الله ابن امير المؤمنين إلى خراسان والري والكور التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب ، من لدُن الري إلى أقصى عمل خراسان ، فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلًا واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضمهم إلى أمير المؤمنين ،ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها ، ما بين عمل الري مما يلي همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها وما هو منسوب إليها ، ولا يشخصه إليه ، ولا يفرق أحداً من أصحابه

---

(١) العقدة : الضيعة والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً . واعتقد الضيعة والمال : اقتناهما . (تاريخ الطبري ٨/٢٧٨ ـ ٢٨١) .

وقواده عنه ، ولا يولي عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولاة أموره بُنداراً ، ولا محاسباً ولا عاملاً ، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يعرض لأحد ممن ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده ، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليهم ولا أحد بسبيل منهم ، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً ، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه ، وبترخيص له في ذلك ، وإدهانٍ منه فيه لأحد من ولد آدم . ولايحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته .

وإن نزع إليه أحد ممن ضم أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفض اسمه ومكتبه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين ، عاصياً له أو مخالفاً عليه، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، بصغر له وقماء[1] حتى ينفذ فيه رأيه وأمره .

فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها ، والذي من حد عملها

(١) الصغر : الرضا بالذل ، والقماء : الذلة .

مما يلي همذان والكور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صرف أحد من قواده الذين ضمهم أمير المؤمنين إليه ممن قدم (قرماسين) أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ، صغرت أو كبرت ، فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد ابن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين والقيام معه والمجاهدة لمن خالفه ، والنصر له والذب عنه ، ما كانت الحياة في أبدانهم ، وليس لأحد منهم جميعاً من كانوا ، أو حيث كانوا ، أن يخالفه ولا يعصيه ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته ، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب . وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدق في قوله ، وأنتم في حلٍّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويسلم له الخلافة .

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية . فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه في إمضاء

ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده أو صرف ذلك عنه ، إلى من رأى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحب ورأى .

فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ، ،وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، وعهد الله وذمته وذمة رسوله ﷺ وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين ، ووكدها في أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمى وكتب في كتابه هذا ، واشترط عليكم ، وأقررتم به على أنفسكم ، فإن أنتم بدلتم من ذلك شيئاً أو غيرتم ، أو نكثتم ، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، واشترط عليكم في كتابه هذا ، فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسول الله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة ، نذراً واجباً لا يقبل الله منه الوفاء بذلك ، وكل مملوك لأحد منكم ـ أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة ـ حر . وكل امرأة له فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج ، لا مثنوية[1] فيها . والله عليكم بذلك كفيل وراع . وكفى بالله حسيباً .

* * *

---

(١) حلف يميناً لا مثنوية فيها ـ أي لا استثناء .

٢ ـ نسخة الشرط الذي كتب عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في صحة من عقله ، وجواز من أمره، وصدقِ نية فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين . إن أمير المؤمنين هارون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون ، وولاني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها ، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ، أو ابتاع لي من الضياع ، والعقد والرباع ، أو ابتعت منه من ذلك ، وما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك ، ولا يعرض لي ولا لأحد من عمالي وكتابي بسبب محاسبة ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أبداً ، ولا يُدخل عليَّ ولا عليهم ولا على من كان معي ، ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً ، في نفس ولا دمٍ ولا شعر ولا بشر ولا مال ، ولا صغير من الأمور ولا كبير ، فأجابه إلى ذلك ، وأقرَّ به وكتب له كتاباً، أكد فيه على نفسه ، ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله ، وعرف صدق نيته فيه ، فشرطت لأمير المؤمنين ، وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه ، وأنصحه ولا أغشه ، وأوفي بيعته

وولايتـه ، ولا أغدر ، ولا أنكث ، وأنفـذ كتبـه وأمـوره ، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي ، ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري ، وسمى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين ، ورضي به أميـر المؤمنين ، ولم يتبعني بشيء من ذلك ، ولم ينقض أمـراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه . فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند ، وكتب إلي يأمرني بإشخاصه إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه ، خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولانا إياه ، فعليَّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كـتب بـه إليَّ . وإن أراد محمد أن يولي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي ، فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إلي واشترطه لي عليه ، وشرط على نفسه في أمري ، وعلي إنفـاذ ذلك والـوفاء لـه به ، ولا أنقص من ذلك ، ولا أغيره ولا أبدلـه ، ولا أقدم قبله أحداً من ولدي ، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين ، إلا أن يولِّي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولاه العهد من بعدي ، فيلزمني ومحمداً الوفاء له .

وجعلتُ لأمير المؤمنين ومحمد عليَّ الوفاء بما شرطت وسميت في كتابي هذا ، ما وفى لي محمد بجمع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي ، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسماة في هذا الكتاب الذي كتبه لي ، وعلى عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمم آبائي وذمم المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمرَ الله بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها ، فإن أنا نقضتُ شيئاً مما شرطت وسميت في كتابي هذا أو غيرت أو بدلت ، أو

نكثت أو غدرت ، فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ودينه ، ومحمد رسول الله ﷺ ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً ، وكل امرأة هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج ، وكل مملوك هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة حرّ لوجه الله ، وعليّ المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة ، نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلاً ، لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك ، وكل ما لي أملكه إلى ثلاثين سنة هدْي بالغ الكعبة ، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لا أضمر غيره ، ولا أنوي غيره .

وشهد سليمان بن أمير المؤمنين ، وفلان وفلان ، وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .

* * *

٣ ـ نسخة كتاب هارون بن محمد الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ! فإن الله ولى أمير المؤمنين وولى ما ولاه ، والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه ، والصانع له فيما قدم وأخر من أموره ، والمنعم عليه بالنصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها ، والكالىء والحافظ والكافي من جميع خلقه ، وهو المحمود على جميع آلائه ، المسؤول تمام حسن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين ، وعادته الجميلة عنده ، وإلهام ما يرضى به ، ويوجب له عليه أحسن المزيد من فضله . وقد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابني أمير المؤمنين ، من تبليغه بهما أحسن ما أملت

الأمة ، ومدت إليه أعناقها ، وقذف الله لهما في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما ، لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دهمائهم ، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزمتهم ، وأعطوهما بيعتهم وصفقات أيمانهم ، بالعهود والمواثيق ، ووكيد الأيمان المغلظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مرد ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا صَرْفٍ له عن محبته ومشيئته ، وما سبق في علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك وعلى الأمة كافة . لا عاقب لأمر الله ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عقْد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين ، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، يعمل فكره ورأيه ونظره ورويته فيما فيه الصلاح لهما ولجميع الرعية والجمع للكلمة ، واللم للشعث ، والدفع للشتات والفرقة ، والحسم لكيد أعداء النعم ، من أهل الكفر والنفاق والغل والشقاق ، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاص حقهما . ويستخير الله أمير المؤمنين في ذلك ، ويسأله العزيمة له على ما فيه الخيرة لهما ولجميع الأمة، والقوة في أمر الله وحقه وائتلاف أهوائهما ، وصلاح ذات بينهما ، وتحصينهما من كيد أعداء النعم ، ورد حسدهم ومكرهم وبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما .

فعزم الله لأمير المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله ، وأخذ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع والطاعة والإنفاذ لأمره ،

واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشد المواثيق والعهود ، وأغلظ الأيمان والتوكيد ، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودتهما وتواصلهما ومؤازرتهما ومكانفتهما على حسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاهما ، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسنن نبيه ﷺ ، والجهاد لعدو المسلمين ، من كانوا وحيث كانوا ، وقطع طمع كل عدو مظهر للعداوة ، أو مُسِر لها ، وكل منافق ومارق ، وأهل الأهواء الضالة المضلة ، من تكيد بكيد توقعه بينهما ، وبدحس ـ فساد ـ يُدحس به لهما ، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة ، والسعي بالفساد في الأرض ، والدعاء إلى البدع والضلالة ، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد ﷺ ، ومناصحةً لله ولجميع المسلمين ، وذباً عن سلطان الله الذي قدره ، وتوحد فيه للذي حمله إياه ، **والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله ، وما ينال به رضوانه والوسيلة عنده .**

فلما قدم مكة أظهر لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك ، وما نظر فيه لهما ، فقبلا كل ما دعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله ، وكتبا لأمير المؤمنين في بطن بيت الله الحرام بخطوط أيديهما ، بمحضر ممن شهد موسم الحج من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده وصحابته وقضاته وحجبة الكعبة وشهاداتهم عليهما كتابين استودعهما أمير المؤمنين الحجبة ، وأمر بتعليقهما في داخل الكعبة .

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة ، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما ، وحضروا كتابهما ،

أن يعلموا جميع من حضر الموسم من الحاج والعُمار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما ، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه ، ويعرفوه ويحفظوه ، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك ، وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام ، فانصرفوا . وقد اشتهر ذلك عندهم ، وأثبتوا الشهادة عليه ، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم ، ولمّ شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله ، أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك .

وقد نسخ لك أمير المؤمنين ذينك الشرطين اللذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبد الله في بطن الكعبة في أسفل كتابه ، هذا فأحمد الله عز وجل على ما صنع لمحمد وعبد الله وليي عهد المسلمين حمداً كثيراً ، وأشكره ببلائه عند أمير المؤمنين ، وعند وليي عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمة محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً .

واقرأ كتاب أمير المؤمنين على من قبلك من المسلمين ، وأفهمهم إياه ، وقم به بينهم ، وأثبته في الديوان قبلك وقبل قواد أمير المؤمنين ورعيته قبلك ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك، إن شاء الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحول والقوة والطول .

وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة .

* * *

قراءات (٩)

وصية الرشيد الى قائده هرثمة بن أعين

لما علم الرشيد بطغيان علي بن عيسى في خراسان ، واضطراب ثغور المشرق ، وجه إليه جيشاً بقيادة (هرثمة بن أعين) وكتب لعلي بن عيسى رسالة بعزله، ورسالة أخرى إلى هرثمة بتعيينه.

وجاء في رسالة الرشيد الى (علي بن عيسى) ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ابن . . . ! رفعتُ من قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقِبكَ ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائي أن خالفت عهدي ، ونبذت وراء ظهرك أمري ، حتى عثت في الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك . وقد وليت هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان ، وأمرته أن يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ، ولاحقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فإن أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغير وبدل وخالف ، وظلم وتعدى

وغشم ، انتقاماً لله عز وجل ، بادئاً ، ولخليفته ثانياً وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للتي لا شوى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً .

وجاء في رسالة الرشيد الى (هرثمة بن أعين) ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه . أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله ، فيحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله ، أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده . وأمره أن يستوثق من الفاسق (علي بن عيسى) وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ، ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين . فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يردوه إليهم . فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق للمسلمين ، فدافعوا بها وجحدوها ، أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته ، حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب ، تلفت أنفسهم ، وبطلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذي حق ، أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء ، وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس ، مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين ، إن شاء الله . فاعمل يا أبا حاتم بما عهدتُ إليك ، فإني آثرت الله وديني على هواي وإرادتي ، فكذلك فليكن

عملك ، وعليه فليكن أمرك . ودبّر في عمال الكور ـ النواحي ـ الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم . وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ، ومَن ولاك الله أمره إن شاء الله .

هذا عهدي وكتابي بخطي ، وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته . وكفى بالله شهيداً .

وكتب أمير المؤمنين بخط يده ، لم يحضره إلا الله وملائكته .

* * *

ومضى هرثمة بن أعين ، فأنجز مهمته بنجاح رائع ، والتزم التزاماً كاملاً بأوامر الرشيد ووصاياه ، ثم كتب رسالة مستفيضة للرشيد بكل ما فعله ، ورد عليه الرشيد برسالة طويلة جاء فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

. . . وأمير المؤمنين يأمرك أن تزداد جداً واجتهاداً فيما أمرك به من تتبع أموال الخائن (علي بن عيسى) وولده وكتابه وعماله ووكلائه وجهابذته والنظر فيما اختانوا به أمير المؤمنين في أمواله ، وظلموا به الرعية في أموالهم . وتتبع ذلك واستخراجه من مظانه ومواضعه ، التي صارت إليه ، ومن أيدي أصحاب الودائع التي استودعوها إياهم ، واستعمال اللين والشدة في ذلك كله ، حتى تصير إلى استنظاف ما وراء ظهورهم ، ولا تبقي من نفسك في ذلك بقية ، وفي إنصاف الناس منهم في حقوقهم ومظالمهم ، حتى لا تبقى لمتظلم من قبلهم

(١) تاريخ الطبري ٨/٣٣٢ ـ ٣٣٧ .

ظلامة إلا استقضيت ذلك له ، وحملته وإياهم على الحق والعدل فيها . فإذا بلغت أقصى غاية الإحكام والمبالغة في ذلك ، فأشخص الخائن وولده وأهل بيته وكتابه وعماله إلى أمير المؤمنين في وثاق ، وعلى الحال التي استحقوها من التغيير والتنكيل بما كسبت أيديهم ، وما الله بظلام للعبيد . ثم اعمل بما أمرك به أمير المؤمنين من الشخوص إلى (سمرقند) ومحاولة ما قبل خامل ، ومن كان على رأيه ممن أظهر خلافاً وامتناعاً من أهل كور ما وراء النهر وطخارستان بالدعاء إلى الفيئة والمراجعة ، وبسط أمانات أمير المؤمنين التي حملكها إليهم . فإن قبلوا وأنابوا وراجعوا ما هو أملك بهم ، وفرقوا جموعهم ، فهو ما يحب أمير المؤمنين أن يعاملهم به من العفو عنهم والإقالة لهم ، إذ كانوا رعيته ، وهو الواجب على أمير المؤمنين لهم إذ أجابهم إلى طلبتهم ، وآمن روعهم ، وكفاهم ولاية من كرهوا ولايته ، وأمر بإنصافهم في حقوقهم وظلاماتهم ، وإن خالفوا ما ظن أمير المؤمنين ، فحاكمهم إلى الله إذ طغوا وبغوا وكرهوا العافية وردوها . فإن أمير المؤمنين قد قضى ما عليه ، فغير ونكل ، وعزل واستبدل ، وعفا عمن أحدث ، وصفح عمن اجترم . وهو يشهد الله عليهم بعد ذلك في خلاف إن أثروه ، وعنودٍ إن أظهروه . وكفى بالله شهيداً . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عليه يتوكل وإليه ينيب والسلام .

كتب اسماعيل بن صبيح بين يدي أمير المؤمنين .

مصادر البحث

١ ـ تاريخ الطبري ـ ذخائر العرب ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر .
٢ ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ دار الكتاب العربي ـ لبنان ـ بيروت ـ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
٣ ـ نفح الطيب ـ تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ـ بيروت . ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م .
٤ ـ تاريخ ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ١٩٦٨ .
٥ ـ دول الاسلام ـ الذهبي ـ مطبعة السعادة ، القاهرة ـ ١٣٦٨هـ .
٦ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ دمشق ١٣٢٩هـ .
٧ ـ فتوح البلدان ـ البلاذري ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م .
٨ ـ الخراج ـ أبو يوسف ـ القاهرة ـ ١٣٤٦ م .
٩ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ـ كارل بروكلمان ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٤م .
١٠ ـ التواريخ الهجرية ـ اللواء محمد مختار باشا ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

* * *



الفهـرس

دعاء الرشيد ٥
مما قيل عن الرشيد ٧
مما قاله الشعراء في الرشيد ١١
المقدمة ١٥
وجيز الأحداث في حياة هرون الرشيد ١٩
الفصل الأول : ٢١
١ ـ قصة الرشيد والخلافة ٢٣
٢ ـ الرشيد وادارة الحرب ٣١
٣ ـ غزوة الصفصاف وفتح هرقلة ٣٥
٤ ـ الرشيد ـ ومراكز القوى ـ محمد بن سليمان ٤١
٥ ـ اخضاع يحيى بن عبد الله ـ بالديلم ـ ٤٤
٦ ـ ولاية عمر بن مهران ـ مصر ٥٢
٧ ـ الفتنة بدمشق ٥٧
٨ ـ الفتنة بالجزيرة الشامية ٦٩
٩ ـ الفتنة في أفريقية ٧٤
١٠ ـ البرامكة وسيطرتهم على الدولة ٨٢
١١ ـ الرشيد ينكب البرامكة ٩٠

١٢ ـ ابراهيم بن عثمان بن نهيك على درب البرامكة ١٠١
١٣ ـ غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح ١٠٤
١٤ ـ بيعة الرشيد لأبنائه بولاية العهد ١١٠
١٥ ـ الصفحة الاخيرة في حياة الرشيد ١١٦
الفصل الثاني : ١٢٧
١ ـ الرشيد القائد ١٢٩
٢ ـ رجل الدولة ١٣٦
٣ ـ الانسان المسلم المؤمن ١٤٤
٤ ـ تاريخ الرجل في الأمة ١٤٨
٥ ـ ليست قضية دفاع عن الرشيد ١٥٤
قراءات : ١٦٣
١ ـ مما قيل في مدح الرشيد ١٦٥
٢ ـ قصيدة الحجاج بن يوسف التيمي في نقض نقفور لعهد الرشيد ... ١٦٨
٣ ـ قصيدة اسماعيل بن القاسم ـ أبو العتاهية ـ في نقض
نقفور لعهد الرشيد ١٧١
٤ ـ الرشيد ، وأمه الخيزران ١٧٣
٥ ـ قصة الرشيد والمغني زرياب ١٧٦
٦ ـ لسان الدين الخطيب يحكي قصة الرشيد وليلة من لياليه ١٨١
٧ ـ ما قيل من شعر في نكبة البرامكة ١٨٧
٨ ـ كتب الرشيد بالبيعة لأبنائه في البيت الحرام ١٩١
٩ ـ وصية الرشيد إلى قائده هرثمة بن أعين ٢٠٢
ـ مصادر البحث ٢٠٦
الفهرس ٢٠٧


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



هذه السلسلة

القمم الشامخة التي تبحثها هذه السلسلة معروفة مشهورة لدى عامة المسلمين وخاصتهم . والكتب التي تتناول سيرهم وتراجمهم لا تعدُ ولا تحصى ، فبماذا تمتاز هذه السلسلة ؟

إنها تركز على جانب مهم من حياة الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء موضوع الدراسة ، هو جانب إدارة الحروب الكثيرة التي خاضتها جيوشهم .

فكل منهم بحكم موقعه كان القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وكان عليه أن يضع « الاستراتيجية العليا » للدولة ويعين القادة ، ويوجههم ، ويحاسبهم .

وهذا ما يجعلنا نعتز بتقديم مجموعة الكتب هذه التي تغطي جانباً مهماً كثيراً ما أهمله المؤرخون .

بقي أن نشير إلى التردد الكبير الذي واجهناه عند اختيار اسم السلسلة . فليس الخليفة ملكاً ولا سلطاناً ، وليس كل ملك أو سلطان خليفة .

وربما كان اختيار الخليفة عمر لقب « أمير المؤمنين » مساعداً لنا في تسمية هذه السلسلة « مشاهير الخلفاء والأمراء » . والله الموفق .

الناشر

